الحُـــرّية عنـــد

ألكسندر بوشكين

مـع

الغجـــر

وفى

ليالى مصريّة

تقديم وترجمة

د. نهاد حسن إمام

مدرس اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس



الحُرّية عند

ألكسندر پوشكين

مع

الغجر

وفى

ليالى مصريّة

تقديم وترجمة

د. نهاد حسن إمام

مدرس اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس



تقديم

فى مطلع عام ١٩٨٧إحتفلت الأوساط الأدبية فى العالم ، وخاصة فى الاتحاد السوفيتى والحبشة ، بمرور مائة وخمسون عاماً على رحيل الشاعر الروسى الكبير الكسندر بوشكين .

ان الكسندر سرجيفيتش بوشكين شاعر حق عظيم . لقد استحوذ على اهتمام المثقفين بصفة عامة ، والدارسين المتخصصين بصفة خاصة لما يتمتع به من موهبة نادرة ، تعيش ثمارها نضرة ، تسعد بها الأجيال . عاش بتعداد السنين حياة قصيرة (١٧٩٩ - ١٨٣٧) ، ولكن بحجم انتاجه وقيمة هذا الإنتاج لايزال بوشكين حى حتى يومنا هذا ، ولانوصف بالمبالغة لو توقعنا لاسمه ان يظل لاجيال قادمة قمة شامخة من قمم الفن صعبة المنال او النيل ، ورمزا للسهل الممتنع فى دنيا الشعر .

ويصعب فهم الشاعر او اعماله - كحال الادب والفن دائما - بدون فهم الظروف التاريخية والاجتماعية التى نشأ فيها ، والتى ساعدت على تكوينه الفكرى والوجدانى . وهو الشئ الذى جعلناه هدفا لنا فى هذا العرض ، لعلنا نساهم بجزء ولو بسيط فى القاء بعض الضوء على شاعر القرن التاسع عشر ، الذى تحير الكثيرون ممن قرأوه مترجما فى سر حب وتقدير شعبه له ، هذا الحب ، وذلك التقدير ، اللذان يبلغان حدا يصعب وصفه .

وعلى الرغم من صعوبة ترجمة الشعر ، واختلاف وجهات النظر حول امكانية ترجمته من عدمها ، نجد انه من واجبنا ضرورة نقل المعرفة بصورة او بأخرى ، مع الالتزام الكامل بالصدق مع الاعمال المنقولة روحا

ونصا . والله المعين على ما اخترنا .

حول نشأة الشاعر : -

ان الكسندر سرجيفيتش بوشكين تمتد جذوره من ناحية الام الى اثيوبيا فجد والدته حبشي ، عمل فى البلاط الامبراطورى الروسى وهو بعد صغير . اهتم به القيصر وقرّبة منه لذكائه وادبه ، بل لقد جعله ربيبه ، واعتنى كذلك بتعليمه .

أرسل القيصر الفتى الحبشي اللامع الذكاء الى باريس ليتلقى التعليم العسكرى . وعندما عاد ، قلده أعلى المناصب فى جيشه ، ومنحه الالقاب المختلفة ، والثروة الواسعة ، كما زوجه من احدى عائلات الاشراف . أما والد بوشكين فروسى الاصل من عائلة عريقة تنتسب أيضا الى طبقة الاشراف .

وهكذا . . فقد عاش بوشكين حياة ابناء الطبقات العليا المرتبطة بالبلاط . وتلقى تعليمه فى مدرسة " الليسيه " ، التى كان لايلتحق بها سوى ابناء النبلاء ، والتى أشرف على إنشاءها واعطاها رعايته القيصر بنفسه ، بل وجعل مقرها ملاصقا لقصره الصيفى فى قرية " تسارسكايا سيلو " التى تعنى " قرية قيصر " .

امتدت دراسة بوشكين فى " الليسية " حوالى ست سنوات (١٨١١ - ١٨١٧) .

لم يكن بوشكين منعزلا تماما عن حياة الناس البسطاء . كانت الحكايات والحواديت الشعبية ، التى تقصها عليه مربيته تقربه من حياة

لم يعشها . وفى اكثر من مناسبة بعد ذلك ابدى بوشكين اعجابه بتلك الحكايات ، التى دون شك أثرت تأثيرا بالغا على كتاباته ، وعلى تكوينه الفكرى ، وتنمية خياله . اما عن مربية بوشكين ، فيجب الا نغفل ذكرها وان نشير الى مكانتها لديه . لقد كانت انسانا قريبا ومقربا اليه دائما حتى فى ايام عزلته ، وكتب لها فيما بعد احدى أرق قصائده بعنوان " الى مربيتى " .

" صديقة أيامى العصيبة والقاسية ،
عزيزتى العجوز الواهنة !
فى مجاهل غابات الصنوبر وحدك
منذ وقت بعيد ، طويل تنتظرينى .
تحت نافذة الحجرة الأمامية
تقفين حزينة ، تقفين كحارس فى دورية ،
وفى كل دقيقة تبطء حركة سنانير الحياكة
بين يديك المجعدتين .
تنظرين الى البوابة المنسية ،
الى الطريق السوداء المترامية :
الحزن والهواجس وانشغال بالك على
يعتصرون دائما فؤادك . . . (١)
(١٨٢٦)

---

(١) جميع الأشعار التى فى المقدمة تم نقلها إلى اللغة العربية عن النص الروسى الموجود فى "مختارات من أعمال بوشكين" ، معظمها يتم نشره باللغة العربية لأول مرة .

مرحلة الصبا :-

بدأ يظهر انتاج بوشكين الشعرى المبشر بالموهبة الكبيرة فى فترة مبكرة نسبيا فى حياته . كان لم يزل بعد طالبا فى "الليسية" يبلغ من العمر اربعة عشر ربيعا حين كتب اول قصائده "إلى صديقى الشاعر" . وفى عام ١٨١٤ قرأ بوشكين احدى قصائده - " ذكريات فى قريه القيصر " أمام الشاعر الروسى الكبير " درجافين " ، اثناء زيارة قام بها الاخير لمدرسة "الليسيه" . أثنى درجافين على القصيدة وتوقع لبوشكين مستقبلا باهرا فى كتابة الشعر . ونشرت هذه القصيدة فى إحدى المجلات الادبية عام ١٨١٥ وهى تحمل لأول مرة توقيع " الكسندر بوشكين " . وتكررت نفس الواقعة مع الشاعر الروسى الكبير "فونفيزن" ، والشاعر " باتيوشكوف " و " جوكوفسكى " . لفتت أشعار بوشكين النظر اليه ، وحاز تقدير واعجاب الجميع فى سنه الصغيرة .

اتقن بوشكين منذ الصبا اللغتين الانجليزية والفرنسية . مما جعل عالمه لا يقتصر على روسيا وحدها . كان يقرأ الشعر بطلاقه بهاتين اللغتين . ولشد ماتأثر بأعلام الرومانسية الاروبية أمثال : "شكسبير" ، "بايرون" ، "سكوت" ، "جوته" ، "ڤولتير" ، "روسو" ، "راسين" ، "موليير" ، . . وغيرهم . كذلك تعرف بوشكين علي الشعر الاغريقى ، والفارسى ، والعربى ، مما سيكون له اثر كبير على مؤلفاته فيما بعد . ومن شعراء بلده كان معجبا بكل من "لومونوسوف" ، "درجافين" ، "راديشيف" ، "جوكوفسكى" ، "وكرامازين" .

فى هذه الفترة كذلك وقع بوشكين تحت تأثير فكرة " الإنسان الحر" "والإنسان البطل" المدافع عن الحرية . ويرجع الباحثون ذلك الى تأثير أستاذ الحقوق فى المدرسة ، والى اعتزازه وفخره لفشل الحملة الفرنسية على بلاده عام ١٨١٢ .

بداية حياته العملية فى " بطرسبورج " : -

انتهت فترة الدراسة فى " الليسية " . وبدأت مرحلة جديدة فى حياة بوشكين فى مدينة بطرسبورج (لينتجراد حاليا) امتدت ثلاث سنوات (١٨١٧ - ١٨٢٠) . عمل اثناءها فى وزارة الخارجية ، وكانت له اتصالات بجماعات أدبية من النبلاء ذات اهتمامات ثورية كما كانت تجمعه الصداقة بكثير من الضباط النبلاء الثوار زملاء الليسية وغيرهم .

ظهرت " الحرية " كأحد أهم المواضيع التى يتناولها بوشكين فى أشعاره والتى تشغل فكرة دائما . ونراها تتأكد وتتعمق فى هذه الفترة نتيجة للمناخ الذى يحيط بالشاعر . وفى ذات الوقت ، وبنفس القوة كان " يتأكد " و " يتعمق " غضب القيصر من بوشكين . فمن المؤكد ان القيصر كان يتوقع أن يرث بوشكين فى دمائه الامتنان للقصر ، لكن ماحدث كان العكس . لقد ورث بوشكين دماءاً ساخنة ، ثائرة ، محبة للحرية والتحرر من كل القيود ، ومن رموز تلك القيود أيضا . كان يطالب بالاصلاحات الاجتماعية ، وإلغاء قانون الرق ، وتحرير العبيد (١) .

كان بوشكين يكره حياة المجتمع الراقى " حياة الاضواء " ، ويطلق عليها " دوامة الاضواء " . لم يشعر مطلقا بالسعادة فى هذا المجتمع مما كان له انعكاسه فى اشعاره . لم يصور هذه الحياة مطلقا على انها بهيجة ، مريحة ، تجلب السعادة للانسان بل على العكس تماما .

بدأ القيصر - الكسندر الأول - يضيق الخناق حول الشاعر ويشدد الرقابة عليه ، مما ساعد على زيادة سأم الشاعر من " مجتمع وحياة

(١) تم إلغاء قانون الرق فى عام ١٨٦١ ، أى بعد وفاة الشاعر بحوالى ٢٣ عاماً .

الاضواء " . بدأت الفجوة بينهما بقصيدة " الحرية " التى كتبها عام ١٨١٧ ، ثم راحت تتسع تلك الفجوة وتتزايد طرديا مع تشديد الرقابة على بوشكين من جانب القصر ، وفى نفس الوقت ظهور قصائد جديدة للشاعر تحمل نفس المعنى. ووصلت الأزمة الى ذروتها ، وقرر القيصر إقصاء بوشكين عن العاصمة ، ونفاه الى شمال روسيا .

ولأن صحة بوشكين لاتحتمل طقس الشمال ، تم تعديل المنفى ، بعد المساعى ، الى الجنوب (القوقاز ، القرم ، كيشنيوف ، واوديسا . .) .

فترة المنفى فى مدن الجنوب : -

امتدت فترة النفى فى الجنوب ٤ سنوات (١٨٢٠ - ١٨٢٤) وكان للطبيعة الحنون ، الخلابة فى المناطق الجنوبية من الامبراطورية الروسية أثر كبير على قريحة بوشكين . كان يشعر بالسكينة بالرغم من العزلة والبعد عن الاصدقاء . كان يمضى وقته فى القراءة ، وركوب الخيل والاختلاط بالناس هناك لمعرفة المزيد عن حياتهم . كما كان يهتم بدراسة التاريخ ، العالمى والمحلى ، ويتابع باهتمام الأحداث الجارية فى بلاده وخارج الحدود . أما أمتع أوقاته فكانت تلك التى يمضيها فى الكتابة .

أول قصيدة روسية رومانسية كتبها بوشكين تحمل عنوان "أسير القوقاز" . البطل فيها يعتزل " مجتمع الاضواء " بعد ان خاب امله فى مثله ومبادئه ، ويهرب من بطرسبورج " الخانقة " - على حد تعبيره - الى منطقة نائية يلمح فيها طيف الحرية ، يملأه الامل أن يجد فيها هدفا ومعنا لحياته . ان الكلمات التى وردت على لسان البطل عن سأم " حياة الاضواء " وسعيه الى الحرية كانت صادقة الى درجة أنها حققت لبوشكين شعبية وتعاطف ، فاقا كل توقعاته . ان البحث عن الحرية ، وعن الذات موضوعان يشغلان بوشكين دائما فى اعماله فى مختلف مراحله . وحول

نفس الموضوع تقريبا سيكتب فيما بعد قصة شعرية أخرى بعنوان " الغجر " .

كتب بوشكين فى هذه المرحلة من حياته العديد من القصائد القصيرة العاطفية والسياسية . وثلاث قصص شعرية : "نافورة باختشيساراى"، "جافريليادا" ، و " الإخوة - قطاع الطريق " . كما وضع بدايات مؤلفه الاسطورى فى إعجازه الفنى والفكرى معا - القصة الشعرية الطويلة " يفجينى أونيجين " . والذى سيكتبه على مراحل ، فى ثمان فصول تتطور فيها الأحداث والشخصيات ، وفقا لتطور فكر بوشكين والأحداث المحيطة به . فالبطل الذى تحمل القصة اسمه ، له ملامح وسمات أصدقاء بوشكين النبلاء الثوريين ، وعلى لسانه - وبقية الشخصيات بالطبع - يعرض بوشكين بانوراما لحياة عصره ، بكل مافيها من أحداث ، وتفاعلات ، وحياة النبلاء والبسطاء ، حتى لقد أسمى النقاد هذه القصة " موسوعة الحياة الروسية " .

تستمر سنوات المنفى لجنوبى . . وفى عام ١٨٢٣ ينتقل بوشكين الى مدينة جنوبية أخرى ، تقع على البحر الاسود ، وهى مدينة " أوديسا " . أثناء اقامته فيها يكتب بعض أجزاء من " يفيجينى أونيجين " ، ويضع بدايات القصة الشعرية " الغجر " .

وسرعان ماتمكن محافظ المنطقة من استصدار قرار من القيصر بنقل بوشكين امعانا فى مضايقته . وبالفعل فى عام ١٨٢٤ انتقل بوشكين الى قرية صغيرة نائية تابعة لمحافظة " بسكوفسكايا " فى الشمال أسمها " ميخا يلوفسكايا " قدر له ان يقضى فيها عامين . (لكنه سيعود اليها فيما بعد فى ظروف مختلفة تماما كما سنرى لاحقا) .

المنفى فى قرية " ميخايلوفسكايا "

تبدأ مرحلة جديدة فى حياة الشاعر فى ميخايلوفسكايا منذ ٣١ يوليو ١٨٢٤ ضيقت الرقابة خناقها حوله ؛ لقد عُين مراقبا له أقرب الناس اليه - والده - وكان شديدا صارما فى رقابته . حتى ان بوشكين أرسل الى القيصر عن طريق المحافظ يطلب سجنه فى أحد القلاع أو السجون ، لأن الحياة فيها ستكون أقل صعوبة بالنسبة له مما هو عليه . ثم استُبدل والده بأخرون من رجالات الدين والحكومة .

وهنا أيضا - فى " ميخايلوفسكايا " - كان بوشكين يمضى وقته فى الصيد والقراءة ، ودراسة التاريخ وسماع الحكايات ، التى ترويها له مربيته . كتب عنها ذات مرة رسالة الى أخيه يقول : " ان كل حكاية - قصيدة " . كان يسعد بوشكين كثيرا بتلك الاوقات التى يقضيها فى زيارة جيرانه - عائلة " اسو بوفى " . ويرجح الباحثون ان يكون قد صادف حبه الحقيقى عندهم - لأن بوشكين لم يدون اسم حبيبته مطلقا . وفى هذه الفترة نظم أقـوى وأجمل أشعار الحب ، وكانت قصائده فرحة ، مرحة ، خالية من المعاناة والأرهاق .

وأتى خريف عام ١٨٢٤ ومعه أتى خريف قصة الحب هذه ، فقد بدأت اشعار بوشـكين تناجى ذكرى حبيبته ، التى فرقتها عنه قوى الشر ! . .

هل تحفظ النفس صورتها الخالدة ؟
هل عرفتُ نعيم الحب ؟
هل أضنانى طول الحزن ،
فرحت أسكب الدمع فى صمت ؟

أين كانت ، صاحبة العينين ،
الضاحكتين لى ، كسماء صافية ؟
أتكون كل حياتى ، ليلة أو ليلتين ؟ . .

(١٨٢٤)

وفى مسودة نفس القصيدة " حوار بائع الكتب مع الشاعر " وُجِدَت الأبيات التالية ، التى توضح سعادة بوشكين فى هذا الحب :

مع من سأقتسم الوحى والالهام ؟
معها وحدها . . فقط أمامها
كنت أتنسم
سرورا رائعا لحب الشعر المقدس .

هناك ، حيث الظلال ، وبديع أوراق الشجر ،
حيث يتدفق تيار السيل الخالد .
كنت أجد القول الملائكى
وانا احترق بظمأ الحب .
هى وحدها كانت ستفهم ،
أشعارى غير الواضحة .
هى وحدها فى قلبى كانت كأنها
تتوهج بقنديل الحب الطاهر ! . . .

ثم استتبع بوشكين هذه القصائد الحزينة بمجموعة اخرى من " قصائد الوداع " يودع فيها المرأة التى احبها ويؤكد اخلاصه لها ، لأنها فى هذه المرة قد فارقت الحياة .

ساكن كل شئ – ظلام الليل يزحف على القوقاز
وتبرق النجوم فوقى .
يغمرنى الشجن ، والسكينة ، وحزن نورانى ،
حزنى تملأينه انت .
انا لك كسالف عهدى ، ويتجدد حبك فى فؤادى
بدون أمل ، ولا أمانى ،
كلهيب الفداء حبى الطاهر ،
وكذا عذوبة الاحلام البريئة عندى (١) .

أرغم بوشكين نفسه على مواصلة الكتابة لاتمام مابدأه ، بالرغم من الحزن الذى سكن طيات فؤاده . كتب الفصلين الثالث والرابع من قصة " يفجينى أونيجين " ، وفى اكتوبر من نفس العام أنهى قصيدة " الغجر " .

لقد ظهر فى هذه القصيدة محور آخر يمثل احد محاور أعمال بوشكين ألا وهو – العالمية . فهو يصف حياة قوم غرباء عنه وعن غالبية قُرّاءه آنذاك . لقد كانت لديه المقدرة على ان يعيش روح الشعوب الأخرى . وان يتناولهم فى اطار انسانى عام ، ويطرح من خلالهم قضايا إنسانية .

والقصيدة تدور حول نفس فكرة " أسير القوقاز"– التى تعرضنا لها سلفا – فالبطل " صديق الحرية " ، باحث عنها . وعلى الرغم من ان القصيدة رومانسية الأداء ، إلا أن بوشكين كان قد أدرك عدم جدوى

---

(١) من قصيدة فوق تلال چورچيا يسود الظلام .

سلبية البطل الرومانسى الذى يهرب من مجتمعه الى الوحدة والعزلة ويكتفى بالاعتراض اليائس .

فى عام ١٨٢٥ بدأ بوشكين يكتب عملا آخر يستند على محور " العالمية " . تراجيديا " مشهد من فاوست " . ان فاوست شخصية وليدة عصر النهضة فى المانيا ، وأصبح نمطا للرومانسية فى أوروبا . استلهم الشاعر الالمانى " جوته " من الاسطورة الشعبية عن دكتور فاوست تراجيدياه المشورة . لكن " مشهد من فاوست " لبوشكين عمل مستقل تماما عن عمل جوته ، وان كان مصدر الالهام واحد . لقد وضع بوشكين هدفا له فى مؤلفه توضيح الاسباب الفكرية والاخلاقية لمأساة فاوست ، وسبب خيبة آماله فى المعرفة . يرى بوشكين ان مأساة فاوست تكمن فى ان الاخير كان شديد الاهتمام بذاته ، وفى ان بحثه عن المعرفة كان من اجل نفسه ولتحقيق رغباته ؛ وفى احقتاره للناس ومصائرهم وحياتهم . استخدم بوشكين هنا الواقعية لبحث قضايا اجتماعية وفلسفية واخلاقية تواجه الانسان بشكل عام فى ذلك العصر . وكان فى هذا استمرار وتأكيد لمعركته مع الرومانسية ، غير المجدية .

راح يتعمق وينمو فى نفس بوشكين فى هذه الآونة إحساس بالمسئولية أمام الإنسانية والتاريخ . فهو صاحب موهبة فذة يعيها جيدا ، وهذا يلقى عليه مسئولية القيام بدور طليعى فى المجتمع . روج لفكرة الدور الطليعى للشاعر فى المجتمع - الشاعر الانجليزى "بايرون". ومن المعروف ان بوشكين أحب " بايرون " شاعرا وتأثر الى أبعد حد بأفكاره ، مع الاحتفاظ بشخصيته المميزة . كان بوشكين يطلق على " بايرون " اسم " ملك الفكر " .

ويحضرنا هنا استطراد بسيط قد يكون له فائدة ما فى القاء الضوء على أحد زوايا فكر بوشكين ، فلقد اطلق لقب " ملك الفكر " على شخصيتين :
الأولى " بايرون " - كما ذكرنا - أما الشخصية الأخرى فهى بعيدة تماما عن الأدب - انه " نابليون بونابرت " .

فى عام ١٨٢٥ ، أثناد دراسة بوشكين لتاريخ الامبراطورية الروسية ، لفت نظره احداث الفترة العاصفة ، التى عاشتها الامبراطورية الروسية ، مايُسمى بالعصر الغامض والمضطرب . انها فترة انتقال السلطة إلى " جودونوف " عن طريق اغتيال القيصر ، ثم اغتيال " جودونوف " نفسه ، واستيلاء الدعى " دمترى ايفانوفيتش " على العرش . تلى ذلك أحداث أخرى جسام ، تَنَقّل اثناءها التاج الروسى من يد الى اخرى دون استقرار ، وهزت المؤامرات والحروب أرجاء الامبراطورية . نضجت فى ذهن بوشكين فكرة كتابة تراجيديا " بوريس جودونوف " لاظهار معنى محدد : وهو ان الشخصية الفردية تكون قادرة على العطاء عندما ترتبط بالشعب وتعبر عن ارادته .

انتهى بوشكين من كتابة المأساة الشعرية " بوريس جودونوف " فى ٧ نوفمبر ، عشية احداث جسام ستقع لأصدقاءه الثوار ، ففى ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٥ قام الضباط أبناء النبلاء والأشراف بحركة عُرفت " بثورة الديسمبريين " .

بعد ذلك أنهى بوشكين كتابة الفصل الخامس من قصة " يفجينى أونيجين " . وقد صور فيه الحياة الروسية البسيطة ، حياة الفلاحين وأحلامهم وحكاياتهم ، كما وصف منازلهم وعاداتهم . لم يعرض بوشكين

حياة الشعب من خلال أغانى الفلكلور ، والحواديت والحكايات الشعبية فحسب ، وانما أهتم بكشف الروح الشعبية نفسها ، وطرح القضايا الجذرية السياسية والاجتماعية التى تهم الشعب ، مما قربه من الناس وجعله شاعرا محبوبا ، مفهوما من الأغلبية الساحقة . تميز أبطال القصة فى هذه المرحلة بالنضج ، لكن " أونيجين " مازال منعزلا عن العالم وعن حياة شعبه .

خلال هذين العامين فى ميخايلوفسكايا نظم بوشكين مايزيد عن سبعين قصيدة قصيرة وقصتين شعريتين : " الغجر " ، " الكونت نولين " ، وتراجيديا " مشهد من فاوست " ، وأتم كتابة أربع فصول من " يفجينى أونيجين " .

فى ١٩ نوفمبر ١٨٢٥ توفى القيصر " الكسندر الاول " ورأى الضباط الثوار ان ينتهزوا فترة انتقال السلطة للقيام بحركتهم المسلحة . وفى ١٤ ديسمبر فى بطرسبورج خرجوا بالأفواج والكتائب الموالية لهم . لكن ثورتهم قمعت بعنف وشدة . لقد أراد القيصر الجديد " نيكولاى الأول " ان يثبت قدرته على الاحتفاظ بتاجه . شنق خمسة واعتقل ونفى الى سيبيريا المئات لقضاء عقوبة الأشغال الشاقة . كان بين المعتقلين والمنفيين أصدقاء مقربين لبوشكين ، مما جعل هذه الأحداث تهزه من اعماقه . وانتظر دوره فى العقاب ، فعلى الرغم من انه لم يكن مشتركا مع الثوار ، الا أنهم كانوا يحفظون أشعاره التى تتغنى بالحرية ويتناقلونها فيما بينهم . كان بمثابة شاعر الثورة وبالفعل استدعاه القيصر الى موسكو للقاء . وتمت المقابلة فى الثامن من ديسمبر ١٨٢٦ فى الكرملين ، واستمرت حوال ساعة . عُرف القليل مما دار اثناء لقاءهما ، لكن يُقال ان بوشكين أجاب القيصر على سؤاله : " لو كنت

يوم ١٤ ديسمبر فى بطرسبورج ، فماذ كنت فاعل ؟ أجاب " :- كنت حتما سأكون في صفوف المنتفضين . " هذه الاجابة وحدها كانت كافية لتوقيع عقوبة الاشغال الشاقة على بوشكين لكن " نيكولاى الاول" أراد ان يكسر هذا الشاعر العنيد بدهاء ، فالنفى وفرض الرقابة أثبتا عدم جدواهما معه . . قرر العفو عنه ، وإرجاعه من منفاه . فكر القيصر أن يكسب ريشة بوشكين ، المحبوب عند الناس ، الى صفه . وإن لم يستطع ، فهناك الحيل الماكرة لتحطيمه . كذلك عفاه من عرض مؤلفاته على موظفين الرقابة ، وحدد له رقيبا واحدا - هو ذاته - القيصر .

أسـرف " نيكولاى الاول " فى الوعود والعهود التى قطعها على نفسه ، اثناء لقاءه مع بوشكين ، بأن ينهج نهج " بطرس الاول " الاصلاحى والتنويرى . لكن الايام أثبتت فيما بعد ان الوعود تظل وعودا وحسب ، فقد اشتهر " نيكولاى الاول " بالاستبداد وعدم الكفاءة. غادر بوشكين " ميخايلوفسكايا " الى العاصمة .

العودة إلى حياة الاضواء فى العاصمة : -

كتب بوشكين فى ديسمبر من هذا العام - وهو يعلم من سيكون رقـيبه - قصيدة أسماها " موشحات " طالب فيها القيصر ان يفى بعهوده ، ويتبع خطى "بطرس الأول" (١) ويقوم بالاصلاحات ، ويعفو عن الديسمبريين وأسرهم المنفية فى " سيبيريا " .

بيد السلطة
راح يزرع التنوير بجرأة ،

---

(١) من المعروف أن بطرس الأول "المشهور أيضاً بـ "بطرس الأكبر" سافر إلى بعثات إلى دول شمال أوروبا ليتعلم فن بناء وإدارة الأسطول . وعاد إلى بلاده وشارك بنفسه مع العمال فى بناء سفن اول اسطول روسى . كان محبوبا من الشعب منذ صغره لتواضعه وتفهمه لظروف بلده وشعبه . وخلفه ابنه «الكسندر الاول» ثم حفيده «نيكولاى الاول» الموجهة اليه القصيدة - وكلاهما لم يحظ بمواهب «بطرس الاول» ولا بمكانته لدى الشعب .

لايحتقر بلاده
ومايلزمها يعرفه .
عالم ، وبطل ،
بحار ، ونجار ،
كان على العرش حاكما خالدا .

لك ان تفخر بنسبك
كن شبيها بسلفك
كن مثله ، ذوهمة وحزم ،
وبذاكرتك ، مثله ، لاتذكر الشر .
(١٨٢٦)

وفى يناير عام ١٨٢٧ كتب قصيدة " الى سيبيريا " ، وأرسلها مع احدى زوجات اصدقاءه المسافرة الى هناك لتلحق بزوجها .

فى سيبيريا ، فى أعماق مناجم الخام
احفظوا صبركم رفيع المقام .
لن يضيع هباء عملكم ، الذى لحقته نكبة ،
ولا الطموح العالى لأفكاركم السامية .

الحب والصداقة
سيصلان اليكم عبر الحراجز الكئيبة ،
كما فى مناجم الاشغال الشاقة
وصل اليكم صوتى الحر .

الأغلال الثقيلة المرهقة ستسقط عنكم
والزنازين ستنهار - والحرية
ستستقبلكم عند المدخل فرحة ،
وسيعيد اليكم رفاقكم الحسام .

استخدم بوشكين بدوره ذكاءه ليتمكن من الاستمرار فى الكتابة مطالبا بالاصلاحات ، منتقدا مالا يعجبه من أوضاع . لقد تناول شخصية " بطرس الأكبر " ، وجعله محورا لأكثر من عمل ، ليعطى القدوة " لنيكولاى الأول " ويذكره دائما بعهوده . كتب قصيدة " بولتافا" عن احداث حرب بولتافا عام ١٧٠٩ ، التى انتصرت فيها روسيا على السويد بعد سنوات من الحروب ، وتظهر شخصية " بطرس الاول " كمدافع شجاع ، وحاكم عظيم ، وزعيم وطنى ، لقد عمم بوشكين هذه اللحظة التاريخية على كل فترة حكم " بطرس الاكبر " ، وأغفل الكثير من أراءه السابقة عن الجوانب السلبية فى حكم " بطرس الاول " ليجعله رمزا وقدوة " لنيكولاى " .

لقد أصبح القيصر يخشى بوشكين ، هذا مايشعر به العالمون بالأمور فى العاصمة . عبر عن ذلك الشاعر البولندى " أدام ميتسكيفيتش " أثناء زيارته لمدينة بطرسبورج فى هذه الآونة ، بأن أطلق على القيصر وبوشكين اسم : " حاكمى روسيا " .

عرض بوشكين تراجيديا " بوريس جودونوف " على الرقيب - القيصر ، فمنع الأخير نشرها ، وبدأ يضيق الخناق حول بوشكين ، وأصبحت حياته فى العاصمة حزينة مكتئبة ، فهو يحيا بين الاعداء المعلنين والخفين ، كثيرون حوله يقدمون النصح اليه ، ولكنهم فى

حقيقة الامر يفرضون القيود عليه . وأصبح المجتمع الراقى فى العاصمتين ، موسكو وبطرسبورج ، حيث يعيش ويتنقل ، أصبح مجرد " دوامة " خطيرة منهكة ، وشعر بوشكين بصعوبة فى الكتابة ، فراح يناجى الوحى : -

وأنت أيها الوحى الفتي ،
دع خيالى بك ينفعل ،
أنعش قلبى من غفوته ،
أهبط كثيرا الى ركنتى ،
لاتدع روح الشاعر فى تفتر ،
تتصلب ، وتقسو ،
ثم فى النهاية تتحجر ،
فى سرور من الاضواء قد تجمد ،

فى تلك الدوامة ، حيث معكم ،
يا اصدقائى الأعزاء ، أسبح .

فى هذه الظروف النفسية الصعبة كتب بوشكين فصلا واحدا من القصة الشعرية " يفجينى أونيجين " .

تعرض بوشكين فى عام ١٨٣٠ لحملة نقد شرسة من بعض النقاد على صفحات الجرائد والمجلات الأدبية ، زادت من همومه . لكن كان يجلب السكينة والحبور الى نفسه المرهقة وجود شعراء وكتاب من الشباب الناشئين يؤمنون بموهبته ويفهمون اشعاره ويتحمسون لأفكاره ،

ولقد أصبحوا فيما بعد كتابا عظام ، يؤثرون بدورهم فيمن يليهم . نذكر من بينهم : " جوجول " ، " ليرمونتوف " ، " بلينسكى " . وكان بوشكين يستمد السعادة كذلك من مراسلاته ولقاءاته مع اصدقاءه القدامى . كتب له ذات مرة صديقه " تشادايف " يقول : " انا واثق انه بإمكانك تحقيق فائدة عظمى لروسيا التعسة ، التى ضلت الطريق " .

فى مايو ١٨٣٠ خطب بوشكين فتاة رائعة الجمال ، فى السادسة عشر من عمرها ، تدعى " نتاليا نيكولايفنا جونشارافا " ، كان قد تعرف بها قبل عامين فى موسكو .

الخريف الاول فى قرية " بولدينو " : -

مرحلة جديدة مميزة فى حياة بوشكين الفنية تبدأ مع خريف عام ١٨٣٠ . والخريف هو فصل بوشكين المفضل ، فهو يقول :- " فى كل خريف اتفتح من جديد " . أمضى بوشكين هذا الفصل المحبب الى نفسه فى قرية " بولدينو " وخلال شهرين ونصف كتب مجموعة قصصية بعنوان " قصص بلكين " ، وأربع مسرحيات : "موتسارت وساليبرى " ، والمأساة - الملهاة عن سطوة المال " الفارس البخيل " ، "الضيف الحجرى" ، " وليمة فى زمن الطاعون " ، وأسماها جميعا " التراجيديات الصغيرة ". كما أتم قصة " يفجينى أونيجين " ، كتب عددا من القصائد القصيرة تعد من روائع الفن الشعرى ، ومجموعة قصائد عاطفية اسماها " الوداع " ، و" التوسل " ، " على ضفاف الوطن البعيد . . " .

لا أريد ، يا أصدقائى ، أن أموت ،
أريد ان أحيا لأعانى وأفكر ،
وأنا واثق أن المسرات حتما ستأت ،

وسط الأحزان ، والأعباء ، والقلق الوفير ،
سأستمتع احيانا من جديد بالنغم الجميل ،
وأسكب دمعا على الخيال غزير ،
وربما - فى غروب حياتى الحزين ،
يبرق الحب من ابتسامة وداع .

سادت قصائد بوشكين فى هذه المرحلة نغمة يمتزج فيها الحزن على أعزاءه ، والقلق النفسى ، والتعب من الرقابة ، مع أمل كبير وعميق فى السعادة .

تميزت هذه المرحلة بالنضج الفكرى والفنى عند بوشكين وانتهاجه الواقعية فى مؤلفاته ، أبطاله عاديون ، يعيشون بقوانين بيئتهم ، وهو يشرح ويحلل الشخصيات وفقا لظروف حياتهم ، ثم يقودها الى الصراع مع هذه الظروف والتمرد عليها ، احيانا لتغييرها ولو بالعنف ، تميزت اعمال هذه الفترة ايضا بانها تدور حول البحث عن القيم الأخلاقية ، وعن السعادة ، وسبل وكيفية مواجهة الانسان لنفسه ولمجتمعه ، ربما لأن بوشكين نفسه كان يبحث عن مخرج وعن اسلوب يتعامل به مع المجتمع والقيصر والحرس ، حتى لا يذل نفسه ، ولا يظل متعقبا.يريد أن يعيش فى حرية دون تقديم تنازلات .

لقد واجهه مأزق وهو يكتب الفصول الاخيرة فى القصة الشعرية " يفجينى اونيجين " ، كانا الفصلان الثامن والعاشر مرتبطين بأحداث ثورة ديسمبر ١٨٢٥، وحتى لايكونا سببا فى تعطيل نشر القصة - لأن القيصر حتما لن يوافق عليهما - اضطر بوشكين إلى حذفهما . فعل ذلك أيضاً لأنه لم يكن يعرف أية نهاية يكتب لهذه الأحداث السياسية

الواقعية ، فهى فى علم الغيب بعد ، ومصير البطل يصعب التكهن به .
خرج بذكائه من هذا المأزق بان حول الأحداث من سياسية الى اجتماعية -
اخلاقية . جعل البطلة ترفض حب " أونيجين " - وهو ما كانت يوما
تتمناه - من أجل الحفاظ على أخلاقيات المجتمع . تحدث بعذوبه عن
السعادة " التى كانت شديدة القرب " ولم يكن يشعر بها ، وأصبحت
مستحيلة الآن ، حتى لاتضيع القيم . تقول " تتيانا " بطلة القصة
لـ " أونچين " :-

كانت السعادة ممكنة
كانت قريبة لنا . . لكن مصيرى
تحدد . قد أكون وقتها
تصرفت بدون حرص .

لقد تزوجت ، ويجب عليك
أن تتركنى ، أتوسل اليك .
أعرف أن فى قلبك
كبرياء ، والشرف أصيل فيك .
أحبك ، ولماذا الخداع ؟
لكنى لغيرك زُوجت ،
وسأكون وفية له ما حَييت .

حياته الأسرية : -

عاد بوشكين الى حياة العاصمة . طلب الحصول على تصريح بالسفر
الى الخارج ، لكن طلبه رُفض .
ومنذ مايو ١٨٣١ أصبح هناك من يقاسمه الحياة فى بطرسبورج .

لقد تزوج من " نتاليا نيكولايفنا " ، وهذا الوضع الاسرى الجديد فرض عليه أعباء مادية ونفسية جديدة ، جعلت سعادته يشوبها القلق وتوتر من نوع جديد .

طلب السماح له باصدار مجلة ، علّها تكون متنفسا فكريا وماديا . وطلبه هذا أيضا رفض ، أراد الاطلاع على أرشيف الدولة ليبحث فى التاريخ . فسُمِح له ، على أن يعمل فى إدارة الخارجية . وهكذا أصبح بوشكين موظفا ، وقيدت الوظيفة حريته الى حد ما . أثناء اطلاعه على الأرشيف جمع مادة تاريخية عن بطرس الأول وعن أحداث كثيرة هامة سيتطرق لها الحديث فى حينه .

فى نهاية عام ١٨٣٣ ألحق القيصر ببوشكين ضربة أخرى ، فقد منحه لقبا جديدا يجعله من شباب البلاط الامبراطورى ، مما أساء الى مشاعره لسببين : أولهما ، أنه ربط بوشكين بالبلاط اكثر ، وثانيهما ، أن هذا اللقب يُمنح لمن هم دون سن بوشكين بكثير من شباب العائلات الارستقراطية . لقد عمد القيصر الى تكبيل موهبة بوشكين بأسلوب غاية فى الدهاء ، كما أهان اسم بوشكين بدلا من أن يرفعه . لم يكن فى امكانه رفض اللقب ، ولا الاستقالة . وانما لجأ الى طريق طالما انتقدها بنفسه على لسان أبطاله - لجأ الى الهروب الى مكان ناء ، هرب إلى القرية بعيدا عن القصر ، والبلاط ، والحرس ، ومجتمع العاصمة " الراقى" ، ولقد أصبح هذا هو الموضوع الجديد ، الذى غذى به مؤلفاته التالية - " الهروب الى القرية ، حيث الحرية أكثر " .

فى الدنيا لا توجد سعادة ، لكن هدوء وارادة
منذ زمن وأنا أحلم بقدرى الباعث على الحسَد

منذ زمن وأنا ، العبد المتعب ، أنوى الهرب
الى مقرٍ ناء للعمل والنعيم النقى .
(١٨٣٤)

لم تجلب له حياته الزوجية السعادة وحسب ، بل أتت بالمتاعب أيضا - كما ذكرنا - فالوحدة والهدوء اللازمان لفنه يزعجان زوجته الجميلة الصغيرة . كان يضطر الى الذهاب معها الى الحفلات الرسمية والحفلات الراقصة . وكانت " نتاليا " تحب حياة الاضواء . وهذا النمط من الحياة يلزمه الكثير من المظاهر ، والأخيرة بدورها يلزمها الكثير من النقود . كل ذلك كان فوق امكانيات بوشكين فى المرحلة الراهنة ، فغرق فى الديون ، كان يلجأ الى القرية ليخلو الى نفسه ، حتى يكتب . كانت زوجته تذهب أحيانا بمفردها الى الحفلات الراقصة ، وتتردد على القصر ، بل وتراقص القيصر ، ان جمال ودلال زوجته أصبحا منبعا آخر للمتاعب . وسط هذا الجو كان بوشكين يفتقد الهدوء النفسى . لقد سلبوه سكينته وحريته . وفى احد خطاباته ، التى ارسلها الى زوجته من القرية ، كتب يشكو لها من شدة قلقه عليها ، ومن أنه يجد صعوبة فى الكتابة ، ولايفكر فى شئ سواها .

وسط هذه الدوامة كانت علاقته بالكُتّاب الشبان ، المقتنعين به ، تسعده الى اقصى حد . كتب " جوجول " - الكاتب المبتدئ آنذاك - مقالا بعنوان " بعض الكلمات عن بوشكين " اظهر فيه عبقرية الشاعر ، ووصف الطابع المميز لمؤلفاته وافكاره ، وألقى الضوء على الروح الشعبية التى يتمتع بها فى كتاباته .

أثناء اطلاع بوشكين على الأرشيف ، ليكتب عن " بطرس الاكبر " ،

لفتت انتباهه احداث انتفاضة الفلاحين فى القرن الثامن عشر (١٧٧٣ - ١٧٧٥) فى عصر " يكاتيرينا الثانية " بزعامة "إمليان بوجاتشوف " . وهى انتفاضة ترفض العبودية فى وقت يسبق أحداث الثورة الفرنسية ، فكتب " تاريخ بوجاتشوف " بدلا من ان يكتب " تاريخ بطرس " . ان قصة " تاريخ بوجاتشوف " يعتبرها النقاد ذروة الفكر والجمال الأدبى فى الطفرة التى حدثت فى أعمال بوشكين فى الثلاثينات . ولكنها لم تعرض بعد على الرقابة لتأخذ جواز المرور الى القراء ! . .

الخريف الثانى فى قرية " بولدينو " : -

ويأت خريف عام ١٨٣٣ بمرحلة جديدة وهامة فى حياة بوشكين ، ويقضيه فى قرية " بولدينو " ، وهو مايعرف بـ " الخريف الثانى فى بولدينو " . (اما الخريف الاول فقد كان فى عام ١٨٣٠) . مكث بوشكين فى قرية " بولدينو " هذه المرة شهر ونصف ، أثمر خلالها قصتين شعريتين : " الفارس النحاسى " ، " اندجيليو " ، وقصة " فتاة البستون " ، وعددا من القصائد العاطفية بالغة العذوبة والروعة . كما كتب قصيدة " الخريف " عن شخصية الشاعر ، وهو موضوع كثيرا ما طرقه الشعراء الرومانسيون فى اوروبا وروسيا ، وكذلك فعل بوشكين .

يأفل ضوء اليوم القصير ، والمدفأة بالحطب تمتلئ
النار تشتعل من جديد - تارة تنشر ضوءا متوهجا ،
وتارة اخرى تشتعل ببطء ويخفت اللهب - وأنا امامها اقرأ ،
والافكار الممتده تحتوينى .

وأنسى العالم - وفى الصمت اللذيذ
يخدرنى الخيال بلذة
ويستيقظ الشعر فى اعماقى :
وتزدحم نفسى بقلق وجدانى ،
تهتز ، وترن ، وتنقب ، كأنى فى حلم .
وفى انسيابية تفيض المشاعر -
وهنا يحضر حشد من الضيوف غير المرئيين إلىّ ،
معارف قدامى ، هم ثمار أحلامى .

والأفكار فى رأسى تعترم فى جرأة ،
وتجرى لملاقاتها القوافى السلسة ،
وتستأذن أناملى فى الذهاب الى الريشة ، والريشة - الى الورق ،
دقيقة - والشعر ينساب وينطلق .

مرة أخرى فى " دوامة الاضواء " :-

مع نهاية الخريف عاد بوشكين الى بطرسبورج ، وبدأ التوتر يحيط بحياته الشخصية والعملية على السواء . فمن الناحية الشخصية ، بدأ من جديد أرهاق الزيارات والحفلات ، وأعباء الحياة اليومية ، وتعقب الحرس له ، والمقالات النقدية ، التى تُنشر فى المجلات والصحف تزف بشرى نهايته الفنية . كما كان يضنيه أكثر وأكثر مايسمعه من شائعات حول زوجته . أما من الناحية العملية ، فقد كان عليه السعى لاصدار ما أتم كتابته : قصتى " تاريخ بوجاتشوف " " والفارس النحاسى " . وحلت أصعب لحظة ، لحظة عرضهما على الرقيب ، والرقيب هو القيصر . ولأن بوشكين يتناول الأحداث من موقفه القريب من الناس ، ولايمجد على

أي نحو فترة حكم القيصرة " يكاتيرينا الثانية " فى العمل الاول ، ويصور " بطرس الأول " فى مواقف نقدية فى العمل الثانى ، فقد طلب القيصر اجراء بعض التعديلات ، التى لم يكن بمقدور بوشكين الموافقة عليها ، مما زاد من حدة التوتر بين " حاكمى روسيا " . ولم تظهر قصة " تاريخ بوجاتشوف " كما هى ، بل استخدمها فيما بعد كنواة لقصة اخرى بعنوان " ابنه الآمر " .

انتهى بوشكين من كتابة " تاريخ بوجاتشوف " فى يوم يوافق مناسبة عزيزة عليه : فلقد صادف ١٩ اكتوبر ١٨٣٦ ، صادف احتفال مدرسة " الليسيه " بمرور ٢٥ عاما على انشاءها . وأقامت المدرسة حفلا بهذه المناسبة ودعت اليه خريجى الدفع الأولى . كتب بوشكين قصيدة ليلقيها بهذه المناسبة ، ولكنه لم يتمها من شدة وطأة المعاناة والضغوط النفسية التى ارهقته :

ذات يوم : كان احتفالنا الفتي
يتألق ، يضج بالصخب ، وتزينه الورود ،
تختلط فيه الأغانى برنين الكئوس ،
وتلاصقنا فى جلستنا لكثرتنا . . .

الآن يختلف الحال : احتفالنا الصاخب
بمضي السنين ، مثلنا ، قد هدأ ،
سكن ، أفاق ، وخمد . . . !

وأخيرا تحقق له فى عام ١٨٣٦ الحصول على تصريح اصدار مجلة ادبية اسماها " سوفرمينك " أى " المعاصر " انشغل بوشكين فى تجهيز مادة الأعداد الأولى للمجلة ، وقرر نشر " ابنه الآمر " فى العدد الرابع .

لم تُحَسِّن المجلة - كما كان يتوقع - من حالته المادية المتدهورة ، على العكس ، لقد باع فى هذا العام ماورثه عن والده ، وبعض متعلقاته النفيسة . وتراكمت الديون عليه . وتلاحقت اللكمات ، التى يكيلها له " مجتمع الأضواء " : الديون ، مقالات هجومية تتهم موهبته بالنضوب ، رقابة وحراسة ، وجاءت الضربة القاضية . . . لقد دأب ابن سفير هولندا فى روسيا ويدعى " دانتيس " ، دأب على مغازلة "ناتاليا" زوجة بوشكين وملاحقتها فى كل مكان تذهب اليه . وفى ٤ نوفمبر تلقى بوشكين ومجموعة من أصدقاءه خطابات بدون توقيع تسئ لسمعة زوجته . وكانت مؤامرة واضحة من " مجتمع الأضواء " تهدف الى الانتقام من الشاعر وتحطيمه نهائيا .

وفقا لقواعد المجتمع آنذاك لم يكن امام بوشكين خيار ، لابد أن يدعو " دانتيس " إلى المبارزة دفاعا عن شرفه . وربما وجد بوشكين أن المبارزة هى المخرج الوحيد من العقدة التى أحكم نسجها حوله القيصر ، فإما الموت ، أو النفى خارج بطرسبورج .

تحدد تاريخ المبارزة يوم ٢٧ يناير ١٨٣٧ . وفى ٢٢ ديسمبر صدر العدد الرابع من " المعاصر " وبه " ابنة الآمر " .

. . . حانت لحظة المبارزة . لقد أصاب " دانتيس " بوشكين فى مقتل. عاش بوشكين بعدها يومين وهو يصارع الموت والألم برجولة وتجلد كان اصدقاءه يتناوبون الجلوس الى جواره . وفى صباح ٢٩ يناير طلب من زوجته ان يأكل ، وأغمض عينيه لحظة ، ثم فتحها وقال بصوت هامس : " انتهت حياتى . . أشعر بضيق فى التنفس . . أشعر انى أختنق . ." وفاضت روحه الى بارئها .

منذ الصباح وحتى المساء توافدت جماهير غفيرة لتوديع جثمان الشاعر العظيم عدا أبناء " دوامة الأضواء " لم يظهروا عند وفاته أو أثناء رقاده .

باشعاره شيد لنفسه تمثالا شامخا . . : -

في الثالث من فبراير ١٨٣٧ نُقل جثمانه إلى قرية " ميخايلوفسكايا ". رافقه صديقه الكاتب " تورجينيف " في مشواره الأخير الى دير " سفيتاجورسك " حيث دفن الجثمان .

ظن القيصر انه قد تخلص من الشاعر تماما ، فهو قد مات ، وجثمانه دُفن في قرية نائية . لكن هل لمن له اشعار بوشكين أن يموت وينتهي ؟ ! .. لقد كتب بوشكين في آخر أيامه قصيدة كانت بمثابة الوصية ، قيّم فيها نفسه على نهج شعراء أوروبا في هذا الوقت . كان يعرف مدى شعبيته وحب الناس له :

سأظل لفترة طويلة محبوبا من الشعب
لان المشاعر الطيبة بشعرى قد أيقظت
والحرية في زماني الصعب قد مجدت
والى الرأفة بالشهداء قد دعيت .

ان هامة تمثاله الذى شيده بالشعر - على حد تعبيره - تعلو هامة تمثال أشهر قياصرة روسيا ، والحشائش الخضراء لن تنمو أبدا الى جواره ، من كثرة خطى الأقدام ، التى ستحضر لزيارته .. ماأروع هذه الصورة !.. لقد قال عنه الأدباء والنقاد المخلصون أجمل الكلمات ، لكن لم تصل بلاغة وصف أحدهم هذا الحد .

لماذا " الغجر " و " ليالى مصرية) ؟

لقد اخترنا أن يجمع كتاب واحد ترجمه القصة الشعرية " الغجر " والقـصة التى لم تـكتمل " ليالى مصرية " لوجود أكثر من شئ يجمعهما . أولا : فيهما تظهر بوضوح احدى أهم " التيمات " التى سيطرت على فكر بوشكين واستحوذت على ملك إلهامه وهى " البحث عن الحرية " بشتى أنواعها . فأبطاله يتغنون بالحرية الفكرية والشخصية والاجتماعية السياسية . كما تجمعهما صفة أخرى مميزة لانتاج بوشكين الأدبى . . ألا وهى العالمية . وثالث ما يجمع هذين العملين أن بوشكين بدأ كتابتهما فى نفس الفترة الزمنية تقريبا . بمعنى أنه بدأهما وهو تحت تأثير مزاج نفسى واحد ناتج من أحداث بذاتها . ففى عام ١٨٢٤ بينما ينفعل بوشكين بالأحداث الثورية التى تجرى فى اليونان وأسبانيا ، وبينما يتابـع نمو الحركة الثورية بين الضـباط النبلاء فى جيش روسـيا (حركة الديسمبريين) بدأ يكتب " الغجر " وقصيدة " كليوباترا " ، التى أعاد صياغتها فيما بعد ثم استخدمها بعد فترة فى قصة " ليالى مصرية " .

« الغجـر »

قصة شعرية

الغجــر

مقــدمـــة

تحتل القصة الشعرية " الغجر " مكانة بارزه بين مؤلفات بوشكين . وقد يرجع ذلك الى سببين : الأول ، أنها تدور حول الموضوع الرئيسى ، الذى طالما ألهم قريحة الفنان الشاعر طوال حياته ، ألا وهو البحث عن الحرية . والثانى ، أن القصيدة تعكس جانبا آخر فى موهبة الشاعر ، وهو عدم التقيد بالمحلية ، أى العالمية .

بدأ بوشكين كتابة القصة الشعرية " الغجر " فى يناير ١٨٢٤ فى مدينة "أوديسا " . كتب منها ١٤٥ بيتا فقط . ثم عاد وأتمها فى اكتوبر من نفس العام فى مدينة " ميخايلوفسكايا " . نظم الـ ٣٩٤ بيتا الأخر فى فترة لاتتجاوز عشرة أيام .(١)

وبهذا يكون بوشكين قد نظم القصيدة أثناء فترتىّ منفاه : الجنوبى ، والشمالى ، بينما يُحَضِّر أصدقاءه من الضباط الديسمبريين لحركتهم الثورية ، التى قاموا بها فى ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ . لقد نالت قصيدة " الغجر " اعجابهم ، لأنها تتغنى بالحرية ، وتصف النظام الاجتماعى - السياسى آنذاك " بأغنية رتيبة يرددها العبيد " . وبعد حركة الضباط فى ديسمبر ١٨٢٥ ، وما تلاها من أحداث ،

(١) بالاضافة الى هذا ، وجد الباحثون فى المسودات مشهدا لم تتضمنه القصيدة ، على الرغم من الجهد المبذول فيه . المشهد يصور «أليكو» يناجى طفله فى المهد ، ولم يتوصلوا الى السبب الذى جعل بوشكين لا يُضَمِّنه القصيدة .

أرجأبوشكين نشر القصيدة كاملة . ولم تظهر الا فى عام ١٨٢٧ بدون توقيع ، مع اضافة ملحوظة : " كتب فى عام ١٨٢٤ " .

ومن الطريف أن بعض أحداث وشخصيات القصيدة تحاكى أحداثا وشخصيات حقيقية صادفت الشاعر نفسه . فمن المعروف أن بوشكين تغيب بضعة أشهر (قبل عام ١٨٢٦) . وعُرف بعد ذلك بوقت أنه كان يتنقل فى أراضى وسهول " مولدافيا " مع قافلة من الغجر . وقد اشار بنفسه فى الخاتمة الى ذلك . لقد أعجب بوشكين بالحرية التى يتمتع بها الغجر فى اسلوب حياتهم . فلهم كل الحرية فى التنقل بين السهوب والانطلاق والتحرر من " عبودية المدن الخانقة " . وماشخصية الشاعر المنفى الى الجنوب إلا الشاعر الرومانى القديم " أوفيدى " ، الذى كان بوشكين معجبا به ، وهو يشبه مصيره الشخصى بمصير " أوفيدى " . كما أن الأغنية ، التى تغنيها " زمفيرا " ، أغنية حقيقية ، جماعية ، راقصة يغنيها الغجر باللغة المولدافية . وقبل نشر القصيدة طلب بوشكين كتابة النوتة الموسيقية لها . وبالفعل تم له ماأراد ، ونُشرت الأغنية بمصاحبة النوتة الموسيقية .

ان لمحات وأفكار كثيرة لبطل القصيدة ماهى الا حقيقة أفكار بوشكين ، " فأليكو " الهارب من حياة المدن ، بحثا عن الحرية يشبه شخصية " أسير القوقاز " وكلاهما يشبهان الى حد ما بوشكين نفسه . فنراه يعرض رأيه فى " مجتمع الاضواء " [١] بصراحة على لسان " أليكو " حيث " يخجلون من الحب ، ويطاردون الفكر ، يتاجرون بحريتهم ويحنون رؤسهم لعلية القوم ، يتوسلونهم نقودا واغلالا " .

---

(١) انظر التقديم .

" ويُرْجِع النقاد نجاح القصيدة لشخصية " أليكو " وما أتى على لسانه من نقد لمجتمع المدينة ، " مجتمع الأضواء " وعلى الرغم من أن بوشكين نهج فى رسم هذه الشخصية نهج الشاعر الأنجليزى الرومانسى " بايرون ".إلا أنه اختلف عن شاعره المفضل بأنه أوضح مأساوية الفلسفة الرومانسية ، وعدم جدوى الحرية الفردية ، وهزيمة الأنانية . " فأليكو " حين يهرب من مجتمعه يحمل معه أينما ذهب كل ما يكرهه فيه . لقد أكد بوشكين من موقع الفكر الواقعى أن " الهروب " الرومانسى لايغير من الواقع شيئا . ولقد احتسب النقاد لبوشكين هذا الموقف لأنه حمى الأدب الروسى من تأثيرات بعض الثقافات الأخرى آنذاك .

* * *

الشخصيات حسب ترتيب الظهور
فى القصيدة

١- شيخ غجرى .

٢- زمفيرا : ابنته .

٣- أليكو : شاب حضرى ، هارب من حكم القانون . يقع فى غرام زمفيرا ، ويتبعها الى أى مكان .

٤- شيخ عجوز من الحضر ، كان قد نُفى الى الجنوب .

٥- ماريولا : من نساء الغجر ، والدة زمفيرا وزوجة الشيخ الغجرى .

٦- شاب غجرى تحبه زمفيرا .

فى جمع صاخب
يرتحل الغجر فى بيسارابيا (*) .
اليوم عند النهر
يبيتون فى خيمهم البالية .
لمخيمهم مرح الحرية والانطلاق
وهدأة الحلم تحت قبة السماء ؛
بين عجلات عرباتهم
حيث القوا بسطهم
شعلة مُتَقدة ، حولهاعائلة
تجمعت تَطهو العشاء . فى العراء
خيولهم ترعى ؛ وخلف الخيمة
يرقد حراً دب أليف .
وسط السهوب
كل ماحولهم عارم بالحياة :
هموم الاسر الوديعة ؛
التى تأهبت للرحيل مع الصباح
الى مكان آخر قريب ؛
اغانى الزوجات ، صياح الاطفال
ورنين سندان المسير .
وهاهو صمت النعاس
يهبط على قافلة الغجر المرتحلين .

(*) بيسارابيا : هى المنطقة المعروفه الان بجمهورية مولدافيا السوفيتية (المترجم)

ولايخترق سكون السهوب
سوى نباح الكلاب ، او صهيل الخيل .
انطفأت النيران ،
وعم السكون المكان ، يتألق القمر
وحده من علياء السماء
يضئ قافلة الغجر الهادئة .
فى احدى الخيام شيخ لاينام ،
يجلس امام جمرات
يتدفأ بآخر لهبها ،
ويحدق فى الخلاء البعيد ،
المغطى بغلاله من بخار الليل .
ابنته الصبية ،
التى اعتادت الانطلاق والحرية
ذهبت تتنزه فى الاراضى الخالية .
ستأتى ؛ ولكن هاقد اسدل الليل ستاره ،
وسرعان ماسيغادر القمر
سحب السماء البعيدة ، ـ
وزمفيرا لم تعد بعد ؛
وعند العجوز يبرد العشاء المتواضع .

لكن هاهى زمفيرا . وفى اثرها
عبر السهب يسرع شاب ؛
لايعرفه الغجرى العجوز .

تقول الصبية :- " ياوالدى ، -
احضرت معى ضيفا ؛
وجدته خلف التل فى السهب
ودعوته ليقضى الليلة عندنا .
يريد ان يصبح غجريا مثلنا ؛
يتعقبه حكم القانون ؛
لكن سأكون صديقته .
اسمه أليكو - وهو
مستعد ان يتبعنى حيثما أكون " .

الشيخ

- سعيد بحضورك . ابق حتى الصباح
تحت سقف خيمتنا
او لتبق اذا شئت معنا لوقت أطول .
انا يابنى مستعد
ان اقتسم معك الخبز والمأوى .
كن واحداً منا - واعتد حياتنا ،
الحرية والتجوال الفقير -
وغداً مع بزوغ الفجر
سنرحل معا فى عربة واحدة ؛
ولتحترف صنعه يابنى :
كأن تطرق الحديد ، او تنشد الاغانى
مصطحبا الدب تطوف القرى .

أليكو

- سأبقى معكم .

زمفيرا

- سيكون لى :
من ذا الذى سيبعده عنى ؟
لكن تأخر الوقت . . القمر الفتى
قد غاب عن السماء ؛ وكسا الظلام الحقول ،
ورغما عنى يغلبنى النعاس . . .

نور الصباح يغمر المكان . الشيخ يطوف بهدوء حول الخيمة الساكنة .
- " انهضى ، يازمفيرا : الشمس تشرق بنورها ،
استيقظ ياضيفى ! لقد حان الوقت لتستيقظا !
غادرا ، ياصغيراى ؛ فراش النعيم ! " . .
وتدفق القوم فى صخب ،
حلوا الخيام ، والعربات
اعدوها للمسير .
وتحرك كل شئ فى آن واحد - وها هو
الحشد يسير فى السهول الخالية .
فوق ظهور الحمير عُلقَت السلال
بها الاطفال يلعبون ؛

الازواج والأخوة ، الزوجات ، الفتيات ،
الشيوخ والفتيان يتبعون ؛
يتعالى الصياح ، والضجيج ، وأغانى الغجر ،
زمجرة الدب ، وقعقعة ملولة
تصدر عن اغلاله ،
اسمال مُبَرقَشة زاهية الألوان
اطفال وشيوخ أشباه عراة ؛
نباح وعواء الكلاب ،
احاديث المزمار ، صرير العربات
كل شئ فقير ، بدائى وهمجى ،
لكن كم هو عارم بالحركة والحياة ،
كم هو غريب عن ترف حياتنا الميت ،
كم هو غريب عن حياتنا اللاهية ،
الشبيهة بأغنية رتيبة يرددها العبيد !

يتطلع الفتى بضجر
الى السهل المقفر
وسبب حزنه الخفى
ماتجرأ على تفسيره لنفسه .
سوداء العينين زمفيرا معه ،
وهو الآن أحد الاحرار فى العالم ،
والشمس فوقه مرحة
تتألق بجمال الظهيرة ؛

لماذا قلب الفتى مضطرب ؟
أى هم هذا الذى يضنيه ؟

عصفور الجنة لايعرف
الهموم أو الاعمال ،
ولا يهتم بأن ينسج
عش يدوم مدى الأيام ؛
فى الليل الطويل فوق الغصن ينام ،
وعند شروق الشمس الارجوانية
يسمع العصفور صوت ربه
ينهض يرقص ويغنى .
بعد الربيع زينة الطبيعة ،
يحل الصيف الحار ،
وبالضباب والغيم والامطار
يأتى الخريف المتأخر :
فتضجر الناس وتبتأس ؛
ويرحل العصفور الى بلدان بعيدة ،
الى منطقة دافئة ، وراء اليّم الازرق
الى ان يعود الربيع .

مثله كالعصفور خالى البال
هذا الطريد المهاجر ،
ماعرف عشاً به الأمان
ولا لشئ تَعَوَّد .
بامكانه الذهاب الى اى مكان ،
وله سقف للمبيت حيثما كان ؛
يستيقظ فى الصباح ،
ويُسَلِّم يومه لمشيئة الإله ،
ولم يتمكن صخب الحياة
من أن يكدر كسل قلبه .
احيانا كانت بالمجد الخلاّب
تغريه نجمة نائية ؛
وكانت الرفاهية والمسرات
تظهر في حياته مباغته ؛
وفوق رأسه الوحيد
كثيراً ماقصف الرعد قصفا ؛
لكنه بلا مبالاة كان ينعس
سواء كان الطقس عاصفا أو صحوا .
وهو يحيا ولا يعترف بسلطان
القدر الغادر الاعمى ؛
ولكن ، رباه ! كم كانت تلهو الرغبات
بنفسه المنقادة الخانعة !
وياله من قلق كانت به

فى طيات قلبه المعذب عارمة !
هل خمدت رغباته منذ زمن بعيد ؟ وهل لأجل طويل ؟
مهلاً ، بل ستفيق من جديد !

زمفيرا
- قل لى ، ياصديقى : ألست آسفا
على ماتركته الى الأبد ؟

أليكو
- وماالذى تركته ؟

زمفيرا
- انت تدرك :
أهل وطنك ، المدن .

أليكو
- علام الأسف ؟ آه لو تعرفين ،
لو تتصورين
عبودية المدن الخانقة !
الناس فيها محشودة خلف الاسوار
لاتتنسم برودة هواء الصباح ،
ولاتستنشق شذا الربيع فى المروج :

انهم يخجلون من الحب ، ويطاردون الفكر ،
يتاجرون بحريتهم ،
يحنون رؤسهم لعليه القوم .
يتوسلونهم نقودا واغلالا .
ما الذى تركت ؟ قلق الخيانة ،
حكم الباطل ،
الاضطهاد الجنونى من الناس ،
أم العار الجليل ؟

زمفيرا
- لكن هناك المهانى الضخمة ،
والبساط متعددة الألوان ،
هناك اللهو ، والولائم الصاخبة ،
وما أبهى ملابس الصبايا هناك !

أليكو
- وما قيمة صخب المرح واللهو فى المدينة ؟
حيث لا يوجد الحب ، لايوجد المرح .
اما عن الصبايا . . فكم تفضليهن ،
بلا ثياب فاخرة ،
بلا لآلئ ، ولا عقود !
لا تتغيرى ، ياصديقتى الحانية !
اما أنا . . فلى رغبة واحدة

ان اقاسمك الحب ، واوقات الفراغ
ومنفاى الاختيارى !

الشيخ

- تحبنا ، بالرغم من نشأتك
وسط القوم الاثرياء .
الا ان الحرية ليست دائما مُحببة
لمن اعتاد الرفاهية والنعيم .
عندنا ، يابنى ، حكاية نتوارثها :
ذات يوم ، نفى القيصر الينا
احد اهالى الجنوب .
(لقد نسيت اسمه الصعب ،
وكنت سابقا أعرفه .)
بحساب السنين كان شيخا ،
لكنه كان شابا بروحه الودود .
كانت عنده موهبة رائعة للغناء ،
وصوته كان كخرير الماء .
احببناه جميعا ،
كان يعيش على ضفاف الدانوب ،
لايؤذى احداً ،
يستهوى الناس بحكاياته ،
لم يكن يدرك شيئا ،
كان كالاطفال ، ضعيفا وجلا ؛

كان الغرباء يصطادون من اجله
الوحوش والاسماك فى الشباك ؛
وعندما يتجمد النهر السريع
وتقصف اعاصير الشتاء ،
بالجلود ذات الوبر الوفير
يدثرون العجوز الطاهر ؛
لكن مشاغل الحياة الفقيرة
لم يستطع ان يعتادها أبداً ؛
كان يطوف ناحلا ، شاحبا ،
ويقول : ان الله غاضب عليه
لذا يعاقبه على جريمته . . .
كان ينتظر : هل ستأتى ساعة الخلاص .
وظل الحنين الى الوطن يضنى البائس ،
وهو يتسكع على ضفاف الدانوب ،
يذرف الدمع المرير ،
كلما ذكر بلده البعيد .
وساعة احتضاره أوصى
بأن تُنقل الى الجنوب
عظامه ، التى طال بها الحنين والضنى ،
وليس للموت أن يريحها
فهى ضيوف غريبة بيننا !

أليكو

- هكذا اذاً مصير أبنائك ،
ياروما ، أيتها الامبراطورية العظيمة ! . .
ياشاعر الحب ، ياشاعرالآلهة ، (*)
أخبرني - ما هو المجد ؟
اهو صدى القبور ، أم صوت استحسان ،
ام حديث تتناقله الأجناس ؟
ام هو قصة تحت سقف خيمة داخنة
يرويها بدائي من الغجر ؟

انقضى عامان . والوضع كما كان
يطوف الغجر جمعا وديعا ؛
كسالف عهدهم يجدون في كل مكان
حسن الضيافة والأمان .
أحتقر أليكو أغلال المدنية ،
وأصبح حراً مثل الغجر ،
بدون مشاغل أو أسف
يقضي أيامه يرتحل .
لم يزل كما كان ؛ والعائلة على حالها ؛
لقد ألف حياة الغجر ،
ولايكاد يذكر من السنين ماسلف .

(*) يقصد الشاعر الروماني اوفيدي نازون . (المترجم)

يحب ظلال خيامهم ،
وبهجة الكسل الأزلى
ولغتهم الفقيرة ذات النغم .
والدب ، الشارد عن وجار عشيرته ،
ضيف يكسوه الوبر فى خيمة أليكو .
فى القرى ، على امتداد السهول ،
بالقرب من منزل ريفى مولدا فى (*)
امام الجمهور الحذر
يرقص الدب متثاقلا ويجأر ،
ويقرض سلسلته المُضجرة ؛
يتكئ الشيخ على عكازه الذى يصحبه فى الطريق ،
ويدق فى كسل على الدف ،
أليكو يقود الدب وهو يغنى ،
زمفيرا تدور على اهل القرية
تجمع عطاياهم الاختيارية
وعند حلول الليل ؛ ثلاثتهم
يطهون قمحاً جريشاً ؛
ينعس الشيخ – ويهدأ كل شئ . . .
الخيمة فى سكون وظلام .

(*) نسبة الى مولدافيا (المترجم) .

يُدفئ الشيخ بشمس الربيع
دماءه التي بردت ؛
وتغني ابنته للحب عند الأرجوحة .
يصغي إليها أليكو ووجهه يشحب .

زمفيرا
- " زوجي العجوز ، زوجي الرهيب
حتى لو تذبحني ، حتى لو تحرقني ؛
صامدة سأظل ؛ لا يرعبني
سكينك ولا نيران اللهيب .
أكرَهك ،
احتقرك ؛
أحب غيرك ،
وأموت في هواه " .

أليكو
- أسكتي . لقد مللت غناءك ،
لا احب الاغاني الهمجية .

زمفيرا
- لاتحبها ؟ وما شأني بذلك !
انما أغنيها لنفسي .

حتى لو تذبحني ، حتى لو تحرقني ؛
لن اخبرك بشئ عنه ؛

يازوجى العجوز ، يازوجى المخيف ،
أنت لن تعرفه .
يفوق الربيع فى نضارته ،
يفوق يوم الصيف في حرارته ،
ما أصباه ، وما أجرأه !
وحبه لى ما أغربه !

كم داعبته
فى هدأة الليل !
وكم ضحكنا وقتها
من شيبتك ! "

أليكو
– اسكتى ، يا زمفيرا ! أنا راض بحالى . .

زمفيرا
– اذاً ، فهمت أغنيتى ؟

اليكو
– زمفيرا !

زمفيرا
– لك ان تغضب ماشئت ،

إنما أقصدك بغناى .
(تنصرف وهى تغنى : يازوجى العجوز ، . . الخ)

الشيخ

– نعم . اذكر هذه الاغنية
نُظمَت فى ايامنا ،
ومَنذ زمان من أجل التسلية
يتغنى بها الناس عندنا .
كانت حبيبتى ماريولا احيانا تتغنى بها ،
وهى تتدفأ بالنار ، وتهدهد طفلة لنا ،
كان ذلك فى ليالى الشتاء الباردة
ونحن فى الطريق نرتحل ، فى البرارى على ضفاف كاجول . (*)
تتباعد السنون فى مخيلتى
وساعة بعد الأخرى تتوارى وتغرب ؛
لكن هذه الأغنية انغرست
فى أعماق الذاكرة .

هادئ كل شئ أثناء الليل . يزين القمر
سماء الجنوب اللازوردية ،
ايقظت زمفيرا الشيخ :
– " آواه ، ياوالدى ! ان أليكو مخيف
أصغى الى انه اثناء حلم ثقيل

(*) احد فروع نهر الدانوب . على ضفافه عام ١٧٧٠ أحرز الجنود الروس نصراً هائلاً على الأتراك . (المترجم)

يئن وينتحب .

الشيخ

- لاتقربيه . والزمى الصمت .
سمعت حكاية روسية تقول :
الآن فى منتصف الليل
يختنق نفس النائم بسبب
الروح التى فى المنزل ؛ وقبيل الفجر
ستنصرف . اجلسى معى

زمفيرا

- والدى ! انه يهمس باسمى : زمفيرا !

الشيخ

- انه يبحث عنك فى الحلم :
فأنت عنده أغلى من الكون .

زمفيرا

- أنفر من حبه ،
لقد مللته ؛ قلبى يرجو الحرية -
لأنى . . ولكن أنصت ! أتسمع ؟
ينطق اسما آخر . .

الشيخ

- اسم من ؛

زمفيرا

– سامع ياوالدى ؟ انات مبحوحة
صرير أسنانه عنيف ! . . كم هو مخيف ! . .
حتما سأوقظه . .

الشيخ

– لاداعى .
لاتطاردى الروح الليلية –
ستنصرف من نفسها . .

زمفيرا

– لقد تقلب على فرشته .
يهم بالنهوض ، ويدعونى . . لقد استيقظ –
سأذهب اليه – وداعا ياوالدى ، ولتنم .

أليكو

أين كنت ؟

زمفيرا

– كنت جالسة مع والدى .
ثمة روح كانت تضنيك ؛
اثناء نومك ، كانت تعانى نفسك
العذاب ؛ لقد أفزعتنى :
فى منامك ، تُصر بأسنانك

وتدعونى باسمى .

اليكو

- كنت أحلم بك .
رأيت ، كأن بيننا . .
رأيت أحلاما مفزعة !

زمفيرا

- لاتصدق الاحلام المضللة .

أليكو

- آه ، انا لا اصدق شيئا :
لا الأحلام ، ولا الوعود المعسولة ،
ولا حتى قلبك .

الشيخ

- علام ، أيها الفتى المتهور ،
تتنهد دائما ؟
الناس هنا أحرار ، والسماء صافية ،
والزوجات يشتهرن بالجمال .
لاتبك : سيقضى عليك الحزن .

أليكو

- لم تعد تحبنى ، ياوالدى .

الشيخ

– أهدأ ، ياصديقى : فهى طفلة .
تكدر نفسك بدون داع :
حبك لها حزين صعيب ،
إما قلب المرأة – فلاه .
أنظر : بعيدا تحت قبةً السماء
يتنزه القمر الطليق ،
يمر على الطبيعة جمعاء
يسكب بالتساو نوره الوضاء .
يعرج على احدى السحابات
فيضيئها ببهاء شديد –
ثم – ينتقل الى أخرى ،
وفى ضيافتها أيضا لايمكث الكثير .
من ذا الذى يحدد له مكانا فى السماء ،
قائلا : توقف هناك !
من ذا الذى يقول لقلب الصبية
أحب واحداً ، ولا تتغير فى هواك ؟
فلتهدأ ، يابنى .

أليكو

– كم كانت تحبنى !
يالكيف كانت فى حنان ولطف تميل على ،
وتقضى هكذا ساعات الليل

في هدأة عزلتنا !
إنها تمتلئ بمرح طفولي ،
وكثيرا ماكانت بثرثرة ظريفة
أو بقبلة لطيفة
تبدد شرودي
في ظرف دقيقة ! . .
ثم ماذا بعد ؟ زمفيرا خائنة !
فترت مشاعر زمفيرتي نحوي ! . . .

الشيخ

- أصغ الى : سأحكي لك حكاية
وقعت احداثها لي أنا تلك الرواية .
منذ عهد بعيد جدا كان الدون
لم يهدده بعد قوم الروس -
(كما ترى ، يا أليكو ، اني استعيد
أحزانا قديمة).
كنا وقتها نخاف السلطان ؛
وكان باشا يحكم بودجاك (*)
من الأبراج العالية في اكرمان - (**)
كنت شابا ، ونفسي
في ذاك الوقت كانت تفور وتغلي من السعادة ،

(*) الجزء الجنوبي من بيسارابيا (مولدافيا حاليا) . (المترجم)
(**) مدينة في مولدافيا . (المترجم)

ولاخُصلَة واحدة فى شعرى المجعد
كانت قد أشيبت بعد ، -
بين الصبايا الملاح
كانت صبية . . لاوقات طويلة
كنت أتأملها ، كالشمس ،
وأخيرا صارت لى . . .

وآه ، شبابى مسرعا
ولّىَ ، كبرق النيزك الدانى !
وانت ، يازمان الحب ، انقضيت
اسرع منه : فقط لعام
حب ماريولا لى دام .

حدث ذات مرة بالقرب من نهر كاجول (*)
ان التقينا مع قافلة من الغجر أغراب ؛
نصبوا خيامهم
قرب خيامنا عند الجبل ،
وأمضينا ليلتين معا .
وفى الثالثة رحلوا ، -

(*) احد فروع نهر الدانوب . (المترجم) .

وتركت ماريولا طفلتنا ،
ورحلت خلفهم .
كنت نائما فى هدوء وعندما بزغ الفجر ،
استيقظت ، فلم أجد رفيقتى !
رحت ابحث عنها ، أناديها - ضاع حتى أثرها .
اخذت تبكى زمفيرا حزينة ،
وكذلك فعلت . ومنذ هذا الوقت
سئمت كل من فى العالم من فتيات ،
وبينهن ناظرى
ما أنتقى أبدا رفيقة جديدة ،
وساعات فراغ الوحدة
لم أعد أقتسمها مع أحد .

أليكو

- وكيف لم تسرع
لتوك فى أثر الجاحدة ،
وفى قلب كل من سلبك إياها ، وفى قلبها الغادرة
لم تغمد خنجرك ؟

الشيخ

- وما الداعى ؟ إن الشباب فى حريته يفوق الطير ؛
من ذا الذى بإمكانه كبح جماح الحب ؟
السعادة تتعاقب على الجميع ؛
وما كان ، لن يصبح من جديد .

أليكو

- لست من هذا النوع - لا ، هكذا بهدوء
لا أتخلى عن حقوقى !
أو على الأقل فلأستمتع بالانتقام .
لا ! لو أنى عند البحر على حافة ربوة
وجدت عدوى نائما ،
اقسم لك ، حتى قدمى
ماكانت ساعتها لترحم هذا الآثم ؛
وفى خضم البحر ، دون أن يشحب لونى
لألقيت به الأعزل ؛
ولهول يقظته المفاجئ
كنت أوجه عتابى بضحكات شرسة ،
ولظل لفترة طويلة دَوى سقطته
مضحكاً وممتعاً لى .

غجرى شاب

- واحدة أخرى . . قبلة أخرى . . .

زمفيرا

- حان وقت عودتنا : فزوجى غيور وشرس .

الغجرى

- قبلة واحدة . . لكن أطول ! . . . للوداع .

زمفيرا
- إذاً وداعاً الى أن يحضر .
الغجرى
- قولى لى - متى نلتقى مرة أخرى ؟

زمفيرا
- اليوم ، ما ان يغيب القمر ،
هناك ، خلف التل عند القبر . . .

الغجرى
- تخدعنى ! لن تحضر !

زمفيرا
- ها هو قادم ! أجر ! . . . بل سأحضر ، ياحبيبى .

اليكو نائم . فى ذهنه
يبرق حلم مبهم ؛
يفيق صارخا والظلام يكتنفه ،
يبسط يده وتعتريه الغيرة ؛
ولكن اليد المتهيبة

تتشبث بالأغطية الباردة –
رفيقته بعيدة عنه . . .
نهض هلعا وراح ينصت . . .
المكان هادئ – اعتراه الخوف ،
يتصبب عرقا ساخنا وباردا ؛
قام ، وغادر الخيمة ،
يجول حول العربات ، يبدو مخيفا ،
ساكن كل شئ ، والحقول صامته ؛
ومظلمة ؛ فقد غاب القمر خلف الضباب ،
ومن النجوم ينبلج بالكاد ضوء شاحب شحيح ،
ويظهر على الندى اثر خفيف
يؤدى الى ماوراء التل البعيد :
يسير مسرعا ، صبره قد نفذ ،
الى حيث يقوده الاثر المشؤم .

فى نهاية الطريق قبر
يلوح أمامه بلونه الأبيض . . .
الى هناك قدميه الواهنتين
يجرهما ، ويضنيه هاجس ،
شفتاه ترتعشان ، ركبتاه ترتعدان ،
مازال سائرا . . . وفجأة . . . أم أن هذا حلم ؟
فجأة يرى شبح جسدين متلاصقين

ويسمع همسا قريبا -
فوق قبر العار والخزى .

الصوت الاول
- حان الوقت كى أنصرف . . .

الصوت الثانى
- انتظرى . . .

الصوت الاول
- حان الوقت ، ياحبيبى .

الصوت الثانى
- لا ، لا ، تمهلى ، فلننتظر بزوغ الصباح .

الصوت الاول
- تأخر الوقت .

الصوت الثانى
- كم تحبين بوجل .
دقيقة !

الصوت الاول

- ستقضى على .

الصوت الثانى

- دقيقة !

الصوت الاول

- ماذا لو أثناء غيابى
افاق زوجى ؟

أليكو

- ها قد أفقت .
الى أين ! لاتسرعان كلاكما ،
تسعدان عند القبر ، حتى هنا .

زمفيرا

- صديقى ، أجر ، أهرب . . .

اليكو

- قف !
الى أين ، أيها الشاب الوسيم ؟
أرقد !
(يغمد أليكو سكينا فى جسد الشاب الغجرى .)

زمفيرا

- أليكو !

الشاب الغجرى

- إنى أموت . . .

زمفيرا

- أليكو ، أنت تقتله !

انظر : لقد تلطخت كلك بالدماء !

أواه ، ماذا فعلت ؟

أليكو

- لا شئ .

والآن تنسمى حبه .

زمفيرا

- لا ، كفاك ، لم أعد أخشاك ! -

إنى أحتقر وعيدك ،

وألعن جريمتك الشنعاء . . .

أليكو

- موتى أنت أيضا !

(يطعنها .)

زمفيرا

- أموت وأنا أهواه . . .

- - - - - -

الشرق ، يضيئه الفجر ،

فيتألق . أليكو خلف التل ،

والخنجر فى يده ، ملطخ بالدم
يجلس على حجر القبر .
الجثتان ملقتان امامه ؛
وجه القاتل يبدو مخيفا .
أحاطوه الغجر وجلون
واحتشدوا حوله منزعجون .
بالقرب قبرا يحفرون .
يتعاقبن الزوجات حزينات
ويضعن فوق أعين الجثتين القبلات .
يجلس الأب العجوز وحيدا ،
فى القتيلة المسجاة يحملق
لقد أصابه الحزن بشَلَله الأخرس .
بينما رفعوا الجثتين ، حملوهما ،
وفى حضن الارض البارد انزلوهما ،
وأرقدوا زوج الشباب .
أليكو من بعيد يرقبهما
يشاهد كل شئ . . وعندما دفنوهما ،
واخر حفنة تراب أهالوها عليهما ،
فى صمت وبطء انحنى
ومن فوق الحجر على العشب هوىَ .

عندئذ تقدم العجوز من أليكو وقال :
- " أرحل عنا ، أيها المتعال !

نحن قوم فطريون ؛ وليس لدينا اى قانون ،
لانعذب ، ولا نشنق الآدميين -
لا حاجة لنا بالدم والأنين -
ولكن لا نريد أن يحيا معنا قاتل أثيم ...
أنت لم تُخلق للحياة البدائية ،
انت تريد لك وحدك الحرية ؛
صوتك سيكون مفزعا بالنسبة لنا :
لأن من صفاتنا الطيبة والوجل
وأنت شرير جرئ - أتركنا وأرحل ،
وداعا ، ولتكن السلامة رفيقا لك ."

قال ذلك - ثم فى حشد صاخب
تحرك مخيم الغجر الرحّالة
من وادى المبيت الرهيب .
وسرعان ما فى السهول على بعد
اختفى كل شئ ، عدا عربة واحدة ،
يغطيها بساط بال حقير ،
تقف فى ساحة المصير .
كذلك يحدث أحيانا قبيل الشتاء
فى الصباح المملوء بالضباب ،
عندما يرتفع محلقا فوق السهوب
سرب متأخر لطائر الغرنوق
يحلق ويصيح متجها الى الجنوب ،

يحدث أن يبقى احد الغرانيق
حزينا ، وهو برصاصة قاتلة قد أصيب
والى جواره أرخى جناحه الجريح .
هبط الليل ؛ داخل العربة المظلمة
لم يوقد أحد النار ،
وتحت سقف العربة المتحرك
لم تعرف عين النوم حتى الصباح .

خاتمة

بقوة الشعر الساحرة
فى ذاكرتى الضبابية
لشد ماتصحو الذكريات
لأيام حزينة ، وأخرى رائعة .

فى هذا البلد ، حيث لزمن مديد
لم يخفت صدى العراك الرهيب ،
حيث قد أمْلِيَت الحدود
وفرضها الروس على استنامبول ،
حيث صقرنا القديم ذو الرأس المزدوج (*)
مازال يضج بمجد السلف ،
وسط سهوب هذا البلد
عند مشارف المعسكرات القديمة

(*) شعار الدولة لروسيا وجيوشها فى ذلك الوقت . (المترجم).

صادفت عربات للغجر مستكينة ،
ابناء الحرية الوديعة .
خلف جموعهم الكسالى
كثيرا ماطفت فى الصحارى ،
قاسمتهم طعام من الابهة خالى
وامام مواقدهم نمت الليالى .
اثناء ترحالهم البطئ أحببت
الصدى المرح لغناءهم -
واسم ماريولا الحبيبة
لزمن طويل تذكرت ورددت .

وليس للسعادة بينكم أيضا مكان ،
يا أبناء الطبيعة البؤساء ! . .
وتحت خيمكم الممزقة
تعيش أيضا الأحلام المُقْلقة ،
وتعريشاتكم المتنقلة
فى البوادى ، لم تنجكم من الويلات ،
فالرغبات المحتومة فى كل مكان ،
ولا دافع للقدر مهما كان .

١٨٢٤

« ليالى مصرية »

(قصة لم تكتمل . .)

كليوباترا . . ليالى مصرية
(قصة لم تكتمل)

هذه القصة الشيقة . . لم تكتمل . . [1]

كان بوشكين ، شاعر روسيا الأكبر تراوده من وقت لآخر فكرة الكتابة عن كليوباترا ونمط حياتها المتحرر من كل قيد إلى حد الانحلال . ففى عام ١٨٢٤ كتب قصيدة بعنوان " كليوباترا " ثم أعاد صياغتها فى عام ١٨٢٨ ، ثم استخدم هذه الأشعار فى قصة " ليالى مصرية " على لسان الشاعر الايطالى المرتجل . ويثبت الباحثون الروس أن بوشكين كان ينوى أن يُضَمن " ليالى مصرية " ما كتبه عن كليوباترا شعراً بعنوان " ايزنسكى " ونثراً بعنوان " أمضينا المساء فى البيت الريفى " .

ومنذ السطور الأولى فى القصة يستشعر القارئ الضجر الذى يملأ نفس بوشكين من القيود التى تكبله . فنراه يعتبر موهبة كتابة الشعر التى وهبها الله لبطله الشاعر - " آفة " يجب أن ينفيها عن نفسه كلما وكيفما أمكن - وهو يصف بأسلوب ساخر مايتعرض له الشعراء من قيود فى المجتمع . وسيجد القارئ أن الموضوع الذى اختاره تشاوسكى ليطرحه على الشاعر الايطالى المرتجل ذو دلالة هامة : فهو يتعلق بحرية الشاعر فى أن يختار الموضوعات التى يكتب عنها ، وعَبّرَ على لسان الشاعر الايطالى تعبيراً بليغاً جميلا بهذا الشأن . فهو يريد للشاعر فى

---

(١) نشرت ترجمه هذه القصة الى اللغة العربية لاول مرة فى المجلة الثقافية اللبنانية " الطريق " العدد الثانى لعام ١٩٧٩ لنفس المترجم .

الكتابة تلك الحرية التى تتمتع بها " الريح " فى أن تهب فى المكان الذى تشاءه لتحرك ماتشاء دون سواه ، وحرية " الصقر المهيب المخيف " أن يقف " على ما يريد وإن كان " جذع شجرة ذابل " تاركا " أعالى الجبال والابراج " ، وحرية قلب ديدمونة فى أن تختار مايراه الجميع غير مناسب لها " ذلك العبد الأسود ".

ومن المحتمل أن تكون شخصية الشاعر - المرتجل مستوحاة من انطباعات بوشكين عن الشاعر الألمانى المرتجل ماكس لانجيشفارتس الذى قام بجولة فنية فى روسيا عام ١٨٣٢ . وكانت موهبة ارتجال الشعر موجودة ايضا فى شاعر بولندى يعرفه بوشكين جيدا هو آدم ميتشكيفيتش .

وواضح أن بوشكين قد أدخل جوانب من مظاهر حياته هو فى شخصية الشاعر تشارسكى ويسهل أن نلحظ أن تشارسكى فى هذه القصة وأليكو فى " الغجر " يجمعهما التمرد على قيود الحياة الاجتماعية الزائفة فى المدن والسخرية منها .

نشرت القصة لأول مرة ، بعد وفاة بوشكين ، فى مجلة "سوفرمينيك" العدد الثامن عام ١٨٢٧ .

الجزء الأول

"ماهوية هذا الرجل" ؟

- أنه موهبة كبيرة ، يصنع من صوته أى شئ يريده .

- كان من الاجدى له ياسيدتى ، ان يصنع منه لنفسه سروالا .

(نقلاً عن اللغة الفرنسية من كتاب المركيز بيبڤر " مختارات من الجناس " - ١٧٧١).

تشارسكى احد سكان بطرسبورج الاصليين ، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ، أعزب . كانت وظيفته لاتسبب له ارهاقا . وفى ايام العز ترك له المرحوم عمه ، الذى كان يشغل منصب نائب المحافظ ، ضيعة تدر له دخلاً لابأس به . كان من الممكن ان تكون حياته بهيجة للغاية لو لم تكن لديه آفة كتابة الشعر ونشرة . كان يدعى فى المجلات بالشاعر ، وبين البسطاء بنظّام الشعر .

وعلى الرغم من الامتيازات العظيمة التى يتمتع بها الشعراء (وللحق : نحن لانرى ان الشعراء في روسيا يتمتعون بأية امتيازات خاصة اكثر من حقهم فى وضع الكلمة فى " حالة المفعول به"بدلا من حالة " المضاف اليه " ، وكذلك بعض مايعرف بالتحرر من القيود فى الشعر) - على اية حال ، وبغض النظر عن اية امتيازات ، فان هؤلاء الناس يتعرضون لاضرار ومضايقات جسيمة . وربما يكون اللقب او الصفة التى تلتصق بالشاعر ولا تسقط عنه ابدا هى اكثر المصائب مرارة واعظم جسامة . الجمهور ينظر اليه كشئ يمتلكه لاعتقاده انه انما وُجدَ لافادته وتسليته . . فما أن يعود الشاعر من قريته حتى يبادره اول

شخص يلقاه بالسؤال : الم تُحضر لنا معك شيئا جديدا ؟ وما ان يبدأ فى تأمل أموره المختلفة ، أو يَشرع فى التفكير فى مرض عزيز عليه ، حتى تصاحب ابتسامة سخيفة صيحة سخيفة ايضا : لعلكم تؤلفون شيئا ما ! وما ان يقع فى الحب (وهو أمر مشكوك فى امكانية حدوثة) حتى تشترى فتاته لنفسها البوما من المحل الانجليزى وتنتظر حينذاك ان يكتب لها فيه مرثيات شعرية . وما ان يحضر الى شخص بصدد امر هام ، وهو لايكاد يعرفه من قبل ، حتى يسارع هذا الرجل بدعوة ابنه ويرغمه على ان يقرأ ابياتا من شعر الشاعر ، فيستقبله الغلام مرحبا بقراءة قصائده وقد ابدع فى تشويهها . . وهذه هى أزهار الحرفة ! ايه خسارة يمكن انتظارها بعد ؟ كان تشارسكى يعترف بانه ملّ التحيات والاستفسارات والمجاملات والغلمان الى حد انه يضطر كثيرا الى ان يمنع نفسه بالكاد عن غليظ القول .

بذل تشارسكى جهودا شتى ليزيل عن نفسه ذلك اللقب البغيض ، فكان يتجنب مجتمعات الادباء ويفضل عليها اوساط النبلاء ، حتى ولو كانوا اكثر الجميع تفاهة . كان حديثه شديد التفاهة ولا يتطرق مطلقا للادب ، وكان يتبع فى ملبسه احدث خطوط المودة بتهيب وحذر كشاب يحيا فى موسكو ويحضر الى بطرسبورج لاول مرة فى حياته .

فى حجرة مكتبه المرتّبَة كحجرة نوم سيدة ، لم يكن هناك اى شئ يمكن ان يشير الى انها حجرة كاتب ، والكتب ليست مبعثرة فوق الطاولات واسفلها ، والاريكة ليست ملطخة بشتى الوان الحبر ، ولا توجد تلك الفوضى التى تدل على وجود الهة الشعر والادب وعلى اختفاء المكنسة وفرشاة التنظيف . كان تشارسكى يشعر بالقنوط اذا ما ضبطه احد معارفه النبلاء ممسكا بريشة الكتابة فى يده . ويصعب

تصديق الى اى حد من صغائر الامور يمكن ان ينزلق انسان حبته الطبيعة مثل هذه الموهبة ومثل تلك الروح : فكان يتظاهر تارة بأنه من هواة الخيل ، وتارة اخرى بأنه مقامر متهور ، وتارة بأنه خبير حاذق فى تذوق الطعام ، على الرغم من انه لم يكن يستطيع ان يميز بين الخيول الجبلية والعربية ، ولم يعرف مطلقا الورق الرابح فى اللعب ، وكان فى سريرة نفسه يفضل البطاطس المشوية على شتى مبتكرات المطبخ الفرنسى . كانت حياته مشتته للغاية ، يبقى طويلا فى جميع حفلات الرقص ، يفرط فى الاكل فى جميع الولائم الدبلوماسية ، وكان وجوده فى كل السهرات امرا لامفر منه تماما مثل " جيلاتى ريزانوف " (١) .

ولكنه كان شاعرا ، ورغبته يتعذر كبحها . . وعندما كان يهبط عليه " سقط الكلام " (هكذا كان يسمى الوحى) كان يغلق مكتبه على نفسه ويكتب منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل ، كان يعترف لاصدقائه الاوفياء انه حينذاك فقط يستشعر السعادة الحقيقية . وفى الاوقات الاخرى كان يتنزه متصنعا منظر من لاصله له بالشعر ، ويستمع فى كل دقيقة للسؤال المجيد : الم تكتب شيئا جديدا ؟

ذات صباح احس تشارسكى بذاك المزاج المبارك عندما ترتسم الاحلام بوضوح امامك ، وتجد كلمات حية تفاجئك لتُجَسِّدَ رؤيتك ، عندما تنساب ابيات الشعر تحت قلمك وتتلاقى الاوزان الرنانة مع الافكار المرتبة . كان تشارسكى مستغرقا فى نسيان لذيذ . . لم يكن للعالم ، ولا لفكرة العالم ، ولا لغراباته الخاصة اى وجود عنده . . كان يكتب شعرا .

---

(١) نوع من الجيلاتى كان ينتجه مصنع ريزانوف للحلوى فى بطرسبورج (المترجم)

وفجأة صرَّ باب حجرته واطل رأس غريب ، انتفض تشارسكى متجهما ، وبامتعاض سأل وهو يلعن فى نفسه خدمه ، الذين لايجلسون ابدا فى مدخل المنزل :

– من هناك ؟

دلف الى الحجرة شخص غريب .

كان رجلا طويل القامة ، نحيف القوام ، يناهز الثلاثين . كانت خطوط وجهه الاسمر مُعَبِّرة : جبهة طويلة شاحبة اللون تظللها خصلات من الشعر الاسود ، عينان سوداوان لامعتان ، انف معقوف ، لحية كثة تحيط بوجنتين غائرتين سمراوين بهما صُفرة ، كان كل ذلك ينطق بأن هذا الشخص اجنبى . كان مرتديا سترة سهرة سوداء اهترأت اماكن الخياطة فيها وبنطلون صيفيا (مع ان طقسا خريفيا للغاية كان يسود فى هذا الوقت) . وكان فص من الماس الزائف يبرق فوق صدر قميص لونه ضارب الى الصفرة ، تدلت فوقه ربطه عنق بالية ، اما قبعته المتعرجة فقد عرفت على مايبدو الطقس الصحو والجو الممطر . لو التقيت بهذا الانسان فى الغابة لاعتبرته قاطع طريق ، ولو التقيت به فى مجتمع ما لظننته متآمر سياسى ، ولو صادفته فى مدخل المنزل فستعتقد انه دجال يتاجر فى الاكسير والزرنيخ .

– ماذا تريد ؟ سأله تشارسكى بالفرنسية .

فأجابه الاجنبى وهو ينحنى الى اسفل :

– سنيور ، أرجو المعذرة اذا كنت . . .

لم يدعه تشارسكى للجلوس بل قام هو نفسه . استمر الحوار بينهما باللغة الايطالية .

قال الشخص الغريب :

– انا فنان من نابلولى ، اضطرتنى الظروف ان اترك وطنى . وحضرت الى روسيا آملاً فى موهبتى .

اعتقد تشارسكى ان هذا الشخص يعتزم تقديم عدة حفلات موسيقية للتشيلو ويقوم بتوزيع تذاكر الحفل على المنازل . حينئذ اراد تشارسكى ان يعطيه ورقة من فئة الخمسة وعشرين روبل ليتلخص منه باسرع مايمكن . الا ان الغريب اضاف قائلا :

- آمل ياسنيور ان تقدم لى معونة صديق لزميله ، وان تقودنى الى المنازل التى ترتادها .

لم يكن من الممكن الحاق اهانة ابلغ من ذلك بكبرياء تشارسكى . فرمق بغطرسة ذلك الذى سمى نفسه بزميله .

- اسمح لى ان اسألك من تكون ، ومن تعتبرنى ؟ - سأله تشارسكى وهو بالكاد يكبح جماح غضبه .

لاحظ القادم من نابولى تكدر تشارسكى ، فأجاب وهو يتلعثم :

- سنيور .. كنت أعتقد .. كنت أحسب . أرجو المعذرة ياسموك ..

- ماذا تريد ؟ - أعاد تشارسكى سؤاله بطريقة جافة .

فأجاب الايطالى :

- سمعت كثيرا عن موهبتكم المذهلة ، وانا واثق ان السادة هنا يعتبرونه شرفا ان يقدموا صنوف الرعاية لمثل هذا الشاعر الفذ ، ولذلك تجاسرت على المثول امامكم . . .

فقاطعه تشارسكى . . .

- لست على صواب ياسنيور ، لايوجد عندنا لقب للشعراء ، ولا يتمتع شعراؤنا برعاية السادة ، شعراؤنا أنفسهم سادة ، واذا كان حماة العلوم والفنون عندنا (عليهم اللعنة !) لايعرفون ذلك ، فهذا شئ سئ للغاية بالنسبة لهم ، لايوجد عندنا قساوسة ثيابهم رثة بحيث يمكن لموسيقى ان يأخذهم من الشارع ليكتبوا له ليبرتو . الشعراء عندنا لاينتقلون من بيت الى بيت يستجدون المعونة لانفسهم . . على أى حال ، أخبروك باننى شاعر كبير من باب الدعابة على الاغلب . . حقا

لقد كتبت بعض الاشعار الهجائية القصيرة ، ولكنى ولله الحمد ، لايجمعنى شئ بالسادة الشعراء ، ولا ارغب فى ذلك .

ارتبك الايطالى المسكين . نظر حوله ، اذهلته اللوحات والتماثيل الرخامية والقطع البرونزية ، واللعب الثمينة المتناثرة فوق طاولات الكتب ذات الطراز القوطى . لقد فهم انه لايوجد شئ مشترك بين ذلك المتأنق المتغطرس ، الواقف امامه فى قلنسوة من الحرير المقصب ذات ذؤابة ، ورداء ذهبى اللون يحيط خاصرته نطاق تركى ، وبينه هو الفنان المسكين المتجول ذو رباط العنق البالى والسترة الكالحة .

تَفَوّه ببضع كلمات اعتذار لا رابط بينها ، وانحنى وهمّ بالانصراف . أثر منظره البائس فى تشارسكى ، الذى يملك - على الرغم من صغار طبعه - قلبا عطوفا خيرا . لقد احس بالخجل من سورة كبريائه .

قال تشارسكى للايطالى :

- الى اين انت ذاهب ؟ انتظر . . . كان على ان انفض عن نفسى لقبا لست جديرا به وان اعترف لك بأننى لست شاعرا . فلنتحدث الان عن امورك . انا مستعد لخدمتك . على ان يكون ذلك فى الحدود الممكنة . . .هل انت موسيقى ؟

اجاب الايطالى :

- لا ياسيدى أنا مجرد شاعر مرتجل مسكين .

صاح تشارسكى وقد شعر بمدى قسوة معاملته :

- شاعر مرتجل ! ولماذا لم تقل من قبل انك شاعر مرتجل ؟

وشد تشارسكى على يده معبرا عن ندمه الصادق .

تشجع الايطالى لما بدا فى مظهر تشارسكى من ود واستقامة بسلامة نيته فى الحديث عن تصوراته . هيئته ليست خَدّاعة ، كان فى حاجة الى نقود ، وكان يأمل ان يُحسّن فى روسيا ، بطريقة او بأخرى ، احواله المنزلية . استمع اليه تشارسكى بانتباه .

قال تشارسكى للفنان البائس :

– آمل ان يحالفك النجاح ، لم يستمع المجتمع هنا الى شاعر مرتجل من قبل . ستثير الفضول ، حقيقة ان اللغة الايطالية لاتستخدم عندنا ، ولن يفهمك احد ؛ إلا ان ذلك ليس بكارثة ؛ المهم ان تكون حديث الساعة .

قال مرتجل الشعر مستغرقا فى التفكير :

– ولكن مادام لايفهم احد عندكم اللغة الايطالية . فمن سيأتى ليسمعنى ؟

– سيأتون . . لاتخاف ! البعض بدافع الفضول ، واخرون لتمضية الامسية بأى طريقة ، وغيرهم ليظهروا انهم يفهمون الايطالية ! أكرر لك ان ما يلزم فقط هو ان تكون حديث الساعة ، وستكون كذلك . . .ها هى يدى لك .

ودع تشارسكى مرتجل الشعر بمودة بعد ان اخذ منه عنوانه . وفى المساء نفسه انطلق يسعى من اجله .

الجزء الثانى

" انا قيصر ، انا عبد ، انا دودة ، انا اله " .

(من القصيدة الثورية " الاله " – لدرجافين / ١٧٨٤)

فى اليوم التالى وفى ممر معتم ومتسخ لاحد الفنادق كان تشارسكى يبحث عن الحجرة رقم ٣٥ . توقف عند باب الحجرة وطرقه .

فتح الباب ايطالى البارحة .

قال له تشارسكى :

- النصر ! كل شئ على مايرام . ستعطيك الأميرة (. . .) قاعتها . وتمكنت بالامس فى حفل استقبال ان استميل نصف بطرسبورج ؛ اطبع التذاكر والاعلانات . أنا أضمن لك ان لم يكن النجاح الباهر ، فعلى الاقل الربح .

- وهذا هو المهم ! صاح الايطالى معبرا عن سعادته بحركات مليئة بالحيوية ومميزة لجنسه من اهل الجنوب .

- كنت اعرف انك ستساعدنى . ياللشيطان ! انت شاعر مثلى تماما ؛ ومهما تضاربت الاقاويل عن الشعراء فانهم فتيان ظرفاء ! كيف لى ان اظهر لك امتنانى ؟ انتظر . . . أترغب فى الاستماع الى شعر مرتجل ؟

- شعر مرتجل ! . . وهل بامكانك ان تستغنى عن الجمهوروالموسيقى ودوى التصفيق ؟

- كل ذلك هراء ، هراء ! اين لى بجمهور افضل منك ؟ انت شاعر وستفهمنى افضل منهم . ان استحسانك الهادئ اغلى عندى من عاصفة من التصفيق . . اجلس حيث تريد واطرح على موضوعا .

جلس تشارسكى على حقيبة . . (احد المقعدين الموجودين فى المكان المتواضع كان مكسورا والثانى محمل بالاوراق والملابس الداخلية). أخذ المرتجل جيتاره من فوق الطاولة ووقف امام تشارسكى يداعب أوتار الجيتار باصابع نحيلة ، منتظرا ماسيطلبه .

- ها هو موضوع لك ، قال تشارسكى : - " الشاعر يختار بنفسه موضوعات اغانيه ، وليس للجمهور الحق فى توجيه وحيه " .

لمعت عينا الايطالى عزف بعض الايقاعات ، رفع رأسه بكبرياء ، ثم اخذت مقاطع الشعر الملتهبة تنساب من بين شفتيه مُعَبّرَة عن احساس

خاطف . وها هى ابيات الشعر كما نقلها احد اصدقائنا بصورة غير دقيقة عما تبقى منها فى ذاكرة تشارسكى :

- بجفون مفتوحة
كان الشاعر يسير . . لكن لايرى احدا
واثناء ذلك . .
ومن طرف ملابسه . . جذبه احد المارة
- " ألا أخبرتنى : لماذا تسير بدون هدف ؟
ما ان وصلت الى القمة
حتى اخذت تخفض بصرك نحو الوادى
ساعيا للهبوط الى اسفل
تنظر الى العالم المتناسق نظرة ملؤها القتامة
روحك يضنيها تَأجُج لامثيل له
ودائما . . تزعجك وتجذبك
توافه الامور
على العبقرى ان يحث السعى نحو السماء
والشاعر الاصيل
ملزم ان يختار لما يستوحيه من ترانيم
اسمى الموضوعات "
- لماذا تدور الريح فى وهدة الوادى
ترفع الاوراق وتحمل الغبار
عندما يكون الزورق فى الماء الساكن
منتظرا هبوبها بلهفة ؟
لماذا يطير الصقر مهيبا مخيفا
من اعالى الجبال مارا بالابراج

نحو جذع شجرة ذابل ؟
الا فاسأله .
لماذا احبت الشابة ديدمونة
ذلك العبد الاسود ؟
كيف يحب الهلال . . سديم الليل ؟
ذلك لانه ليس للرياح ولا للصقر ،
ولا لقلب العذراء قانون . . .
هكذا الشاعر
مثل الرياح الشمالية
تحمل ما تريده
تطير مثل الصقر
ولا تسأل احدا
كيف اختارت ديدمونة معبودا لقلبها .

سكت الايطالى فى حين كان تشارسكى صامتا يعتريه الذهول والتأثر .

- ما رأيك ؟ - سأل مرتجل الشعر .

جذبه تشارسكى من يده وشد عليها بقوة .

- ماذا ؟ - سأل مرتجل الشعر - كيف كان الحال ؟

اجاب الشاعر تشارسكى :

- مدهش ! كيف تسنى لك هذا ؟ ما ان لامَسَت مسامعك فكرة شخص غيرك حتى أصبَحَت وكأنها فكرتك انت ، وبدا كما لو كنت مولعا بها تقلبها وتطورها بلا انقطاع . اذن انت لاتعانى جهدا ولا يعترض سبيلك ما يسبق الوحى عادة من برودة وقلق ! شئ مدهش .. مدهش.

اجاب مرتجل الشعر :

– لكل موهبة سرها . فمثلا كيف يتاح للنحات ان يرى "جوبيتر"(١) مختفيا فى قطعة من الرخام الكرارى (٢) ، فيخرجه الى الوجود عندما يفتت غلافه بالازميل والمطرقة ؟ ولماذا تخرج الفكرة من رأس الشاعر مزودة بأربع قواف وموزونة فى تفعيلات منسجمة ومتشابهة ؟ – هذا ، ولا يمكن لاحد غير الشاعر المرتجل نفسه ان يفهم مثل هذه السرعة فى توارد الانطباعات ، ومثل هذه الصلة الوثيقة بين الهامك الخاص وبين الارادة الظاهرية لغيرك – ولو وددت انا شخصيا ان افسر ذلك لكان الاخفاق من نصيبى . . على اية حال . . علينا ان نفكر فى حفلى الاول. ما رأيك ؟ ماهو السعر الذى يمكننى تحديده للتذكرة على الا يرهق الجمهور وفى نفس الوقت لايلحق بى خسارة ؟ يقولون ان سنيورة كاتالانى(٣) كانت تتقاضى ٢٥ روبلا ثمنا للتذكرة ؟ سعر حسن .

لم يشعر تشارسكى بالارتياح ، اذ وجد نفسه فجأة يهوى من قمة الشعر الى أسفل مقعد لكاتب حسابات . . ولكنه كان يفهم جيدا ضرورات الحياة فهبط مع الايطالى الى الحسابات التجارية . وفى هذا الموقف أظهر الايطالى جشعا فاحشا وحبا فطريا للربح الى حد ان تشارسكى اشمأز منه وسارع الى تركه حتى لايفقد تماما شعور البهجة الذى وَلّدَه عنده مرتجل الشعر الرائع . لم يلحظ الايطالى الملتهى هذا التغيير ، وودع تشارسكى حتى الممر ، حتى الدرج ، وهو ينحنى الى اسفل ويؤكد له عرفانه بالجميل الى الابد .

---

(١) اله السماء والضوء والمطر عند الاغريق والرومان (المترجم)

(٢) نوع من الرخام رفيع الجودة يستخرج فى بلدة كرارى بايطاليا (المترجم) .

(٣) انجيل كاتالانى (١٧٨٠ – ١٨٤٩) مغنية ايطاليه مشهورة ، قامت بجوله فنية فى بطرسبورج فى عشرينات القرن التاسع عشر .

الجـزء الثالــث

"ثمن التذكرة الواحدة عشرة روبلات ، يبدأ الحفل الساعة السابعة".
(اعلان)

وضعت صالة الاميرة (. . .) تحت تصرف الشاعر المرتجل ، حيث اقيمت خشبة المسرح وصُفّت المقاعد فى اثنى عشر صفا . كما تمت اضاءة القاعة فى اليوم المحدد ابتداءا من الساعة السابعة مساء . وامام طاولة بيع التذاكر جلست سيدة عجوز ذات انف طويل ، ترتدى قبعة رمادية مزينة بريشات مشقوقة وتضع الخواتم فى جميع اصابع يدها . وعند المدخل اصطف الحراس .

بدأ الجمهور يتوافد ، وكان تشارسكى من اوائل الذين وصلوا الى المكان . فقد ساهم بقسط كبير فى انجاح العرض وود لو يرى الشاعر المرتجل ليعرف ان كان راضيا عن كل شئ .

فى حجرة جانبية صغيرة وجد تشارسكى ان الايطالى ينظر بقلق الى الساعة مرتديا ملابسه على الطريقة المسرحية ، اللون الاسود يكسوه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ياقة قميصه المحلاة بالدانتيلا مثنية ، لون ابيض غريب يميز رقبته العارية عن ذقنه السوداء الكثة ، خصلات من شعره تنسدل على جبينه وحواجبه . كل ذلك لم يرق لتشارسكى ، ولم يطب له ان يرى شاعرا فى لباس ساحر متجول ! . بعد حديث قصير معه عاد تشارسكى الى القاعة التى أخذت تمتلئ رويدا رويدا بالجمهور .

وسرعان ماشُغلت المقاعد بسيدات متألقات ، بينما اصطف الرجال على شكل اطار حدوده المسرح والجدران والقاعة الخلفية .

شغل الموسيقيون وحاملات نوتاتهم جانبى خشبة المسرح ، وفى وسطها وضعت طاولة وفوقها اناء من الخزف . جمهور غفير يملأ القاعة والجميع ينتظرون البداية بلهفة ، واخيرا فى السابعة والنصف ، بدأت الحركة تدب بين الموسيقيين واخذوا يجهزون اقواس الاتهم ثم عزفوا الافتتاحية الموسيقية لـ " تانكريد " [١] . اخلد كل شئ الى الصمت عزفت النغمات الاخيرة من المقدمة الموسيقية . . وتقدم المرتجل الى حافة خشبة المسرح وهو ينحنى الى اسفل ، بين دوى تصفيق حاد فى كل ارجاء القاعة .

كان تشارسكى ينتظر بقلق تأثير الدقيقة الاولى على الجمهور ، الا انه لاحظ ان اللباس الذى بدا له غير مناسب على الاطلاق لم يترك نفس الانـطباع لدى الجمهور ، بل ان تشارسكى ذاته لم يجد فى هيئة الايطالى ، الواقف على خشبة المسرح بوجهه الشاحب وقد سلطت عليه الاضواء من العديد من اللمبات والشموع ، شيئا مثيرا للسخرية . هدأ التصفيق وتوقف اللغط . . . تحدث الايطالى بلغة فرنسية ركيكة وطلب من السادة الحاضرين تحديد عدة موضوعات يكتبونها على وريقات خاصة . نظر الجميع كل الى الاخر فى صمت لدى استماعهم الى هذه الدعوة المفاجئة ، ولم يجب احد بشئ ، انتظر الايطالى برهة ، ثم أعاد رجاءه بصوت وجل وكسير .

كان تشارسكى واقفا عند خشبة المسرح مباشرة . تملكه القلق ، وخالجه شعور بأن الامر فى حاجة لتدخله ، وانه حتما سيضطر الى تقديم موضوعه . وبالفعل استدارت رؤوس بعض السيدات اليه واخذوا يحثونه بصوت منخفض ، فى بداية الامر ، ثم اخذ يتعالى ويتعالى . عندما

---

(١) أوبرا "تانكريد" لـ "روسينى" (١٨١٣) . موضوعها مأخوذ عن تراجيديا فولتير المعروفه بنفس الاسم (١٧٦٠) .

سمع الشاعر المرتجل اسم تشارسكى بحث عنه بعينه عند قدميه ثم ناوله قلما من الرصاص وقصاصه ورق وهو يبتسم له بود . بدا لتشارسكى ان القيام بدور فى هذه الكوميديا شئ غير مريح ، ولكن لم يكن بيده شئ . اخذ القلم والورقة من يد الايطالى وكتب بضع كلمات . تناول الايطالى الاناء الخزفى من فوق المنضدة وهبط من فوق خشبة المسرح ، ثم قدمها الى تشارسكى الذى القى فيها بموضوعه مكتوبا . . حذا حذوه الاخرون ؛ ورأى صحفيان يشتغلان بالادب انه لزاما عليهما ان يكتب كل منهما موضوعا ، كما وضع سكرتير سفارة نابولى وشاب عائد للتو من رحلة من الخارج ورقتين مطويتين فى اناء الاقتراع بينما كانا يتحدثان عن فلورنسيا [١] ، واخيرا كتبت فتاة غير جميلة وفقا لامر والدتها بضعة اسطر بالايطالية ، وكانت عيناها مليئتين بالدموع وتشوب اذنيها حمرة . تقدمت واعطت الورقة للمرتجل . فى هذه الاثناء كانت النسوة ينظرن اليها بصمت مشوب بسخرية طفيفة . بعد ان عاد الشاعر المرتجل الى خشبة المسرح وضع اناء الاقتراع على الطاولة واخذ يخرج الوريقات منها الواحدة تلو الاخرى . وهو يقرأ بصوت مسموع :

- " عائلة تشنتشى " (٢)

---

(١) فلورنسيا مدينة فى وسط ايطاليا تعتبر من اهم المراكز الاقتصادية والثقافية. كانت تلعب الدور القيادى فى حركة النهضة الايطالية . عاش فيها دانتى وليونارد دافينشى ، مايكل انجلو ، ميكافيلى .. وغيرهم .. (المترجم) .

(٢) اسرة رومانية معروفة عاشت فى القرن السادس عشر ، رب هذه الاسرة فرانتشسكو تشنتشى ارتكب العديد من الجرائم البشعة وقتله افراد اسرته بعد ان لم يعد باستطاعتهم ان يحتملوا العذاب ، فى عام ١٥٩٩ اصدرت المحكمة البابوية حكما بالاعدام بعد التعذيب القاسى ، على كل من ابنه وابنته وزوجته الثانية . تاريخ هذه الاسرة هو اساس هذه الدراما الشهيرة «تشنتشى» (١٨١٩) للشاعر الانجليزى برس بيش شيللى .

- " اخر يوم فى بومباى " (١)
- " عشاق كليوباترا "
- " الربيع من وراء القضبان " (٢)
- " انتصار تاسو " (٣)
- بماذا يأمر الجمهور المبجل ؟ سأل الايطالى بانكسار - هل تحددون لى بانفسكم احد المواضيع المقترحة ، ام نترك حسم هذا الموضوع للقرعة ؟. .
- القرعة - قال صوت احد الحاضرين .

وكرر باقى الجمهور :

- القرعة ، القرعة !

---

(١) المقصود بهذا الموضوع غالبا ، هى لوحة كارل بتروفيتش بريلوف (١٧٩٩ - ١٨٥٢) التى عرضت فى بطرسبورج عام ١٨٣٤ - وبومباى هى مدينة فى روما القديمة تهدمت بعد انفجار بركان فيزوفيا فى اغسطس عام ٧٩ بعد الميلاد . واسفرت حملات التنقيب الى اخذت تجرى منذ منتصف القرن الثامن عشر عن اكتشاف الجزء الأكبر من المدينة القديمة . وتعتبر بومباى اهم مصدر للمعلومات عن اقتصاد وحياة وثقافة وفنون الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من العصر الحالى . (المترجم) .

(٢) على الارجح ان هذا الموضوع مستوحى من احد مشاهد الكتاب الشهير فى ذلك الوقت « زنزانتى » ١٨٣٢ لسلفيوبليكو - الكاتب الايطالى والشخصية السياسية (١٧٨٩ - ١٨٥٤) .

(٣) تروكفاتو تاسو : مات قبيل تتويجه المنتظر باكليل الغار فى كابتولى ، وكتب ك . ن. باتيوشكوف مرثية عن هذا الموضوع بعنوان « تاسو يحتضر » (١٨١٧) وتاسو شاعر ايطالى عاش فى القرن السادس عشر واثر انتاجه تأثيرا كبيرا على أدب اوروبا الغربية فى القرن ١٧ - ١٨ ، كتب عن شخصيته كل من جوته وبايرون . (المترجم) .

هبط الشاعر المرتجل مرة اخرى من فوق خشبة المسرح حاملا بيده اناء الاقتراع ثم سأل :

– من يتفضل بسحب موضوع ؟

تطلع الشاعر المرتجل بنظرة ضارعة الى الصفوف الاولى ، ولكن هذه النظرة لم تترك أى تأثير فى السيدات المتأنقات الجالسات فى هذه الاماكن وعلى مايبدو فان المرتجل ، الذى لم يعتد على لامبالاة اهل الشمال كان متألما . . وفجأة لاحظ من جانب القاعة يدا صغيرة ممتدة فى قفاز أبيض . اتجه اليها بحماس واقترب من سيدة شابة جميلة وقورة المظهر كانت تجلس على طرف الصف الثانى . ووقفت السيدة دون أى ارتباك وبكل بساطة مدت يدا ارستقراطية فى اناء القرعة وسحبت ورقة مطوية .

وقال لها المرتجل :

– الا تفضلت بفضها وقراءتها ؟

فتحت السيدة الجميلة الوريقة وقرأت بصوت مسموع :

– " عشاق كليوباترا " .

على الرغم من انها نطقت هذه الكلمات بصوت خافت ، الا ان الصمت الذى ساد القاعة فى هذا الوقت ، جعل الجميع يسمعونها . انحنى المرتجل بشدة الى اسفل للسيدة الرائعة ، وكان الامتنان العميق لها باديا عليه ، ثم عاد الى خشبة المسرح .

ثم قال متوجها للجمهور :

– ايها السادة ! حددت لى القرعة كموضوع لشعرى المرتجل " عشاق كليوباترا " ارجو ان تتفضل الشخصية التى اختارت هذا الموضوع وتوضح لى فكرتها ، عن اى عشاق يجرى الحديث هنا ، لانه كان لدى القيصرة العظيمة الكثير منهم .

عند سماع هذه الكلمات ضج رجال كثيرون بالضحك . فارتبك المرتجل

قليلا ، ثم اكمل :

- كنت اتمنى ان اعرف الى اية خاصية تاريخية اشارت الشخصية التى اختارت هذا الموضوع . ساكون ممتنا للغاية لو تفضلت ووضحت ذلك .

لم يسارع احد بالاجابة . والتفتت بعض السيدات الى الفتاة غير الجميلة التى كتبت موضوعا بامر من والدتها . لاحظت الفتاة المسكينة هذا الانتباه غير المستحب فاضطربت الى درجة ان الدموع تعلقت باهدابها . . . لم يتمكن تشارسكى من احتمال هذا فتوجه الى المرتجل متحدثا باللغة الايطالية :

- انا الذى اقترحت هذا الموضوع . كنت اقصد شهادة افرملى فيكتور[١] . الذى كتب ان كليوباترا كانت حددت الموت ثمنا لحبها وانه بالفعل كان هناك عشاق لم يخيفهم مثل هذا الشرط ، ولم يحولهم عنها . . الا انى ارى ان الموضوع يصعب بعض الشئ . . الا اخترتم موضوعا آخر ؟

ولكن المرتجل كان يشعر فعلا باقتراب اله الوحى . . اعطى الاشارة الى الموسيقيين ليبدأوا العزف . . . امتقع وجهه بشكل مخيف وبدأ يرتجف كمن اصابته حمى . لمع فى عينيه بريق عجيب . ازاح بيده شعره الاسود وجفف بالمنديل جبينه العالى المكسو بحبات العرق . . وفجأة خطى الى الامام ثم عقد يديه على صدره . . سكتت الموسيقى . . وبدأ ارتجال الشعر :

---

(١) المقصود هنا احد مشاهد كتاب « عن مشاهير روما » الذى ينسب الى الكاتب والمؤرخ الرومانى سكست افرملى فيكتور (القرن الرابع بعد الميلاد) .

كان القصر مضيئا ، تعلو فى صوت واحد
اصوات المغنيين على نغمات الفلوت والقيثارة
وكانت القيصرة بصوتها ونظراتها
تنعش وليمتها الفاخرة ،
القلوب تتدافع نحو عرشها ،
ولكن فجأة فى الكأس الذهبية
تأملت . . وللوادى
احنت راسها البديع . . .

بدت الوليمة الفاخرة كما لو كانت تغفو
الضيوف ساكنون ، جوقة الغناء صاخبة
الا أنها رفعت جبينها من جديد
وبشكل جلى قالت :
اذا كان فى حبى لكم نعيم ؟
فبامكانكم ان تشتروا هذا النعيم . .
اصغوا اذن الى :
العدالة سأقيمها بيننا
من سيتقدم الى صفقة الهوى ؟
ساعرض حبى للبيع
قولوا : من منكم سيشترى
ليلتى بحياته ؟

قالت ذلك – واستحوذ الذعر على الجميع .
ارتجفت القلوب من الخوف . .
وسرى تذمر وضيق

وقد خلعت كليوباترا عن وجهها البارد عذار الحياء
وشملت بنظرة احتقار ،
محبيها المحيطين بها . . .
وفجأة يخرج شخص من بين الجمع ،
وفى اثره اثنان اخران .
يخطون فى شجاعة ، عيونهم صافية ،
هبت للقائهم
قُضيّ الامر : بيعت ثلاث ليال
وفَرَاش الموت يناديهم .

باركتهم الكهنة ،
والان ، من وعاء اقتراع الموت
امام الضيوف الساكنين
تخرج القرعة بالدور .
الاول – فلانى ، محارب شجاع
تمرس فى الحرس الرومانى
لم يستطع ان يحتمل من زوجته
احتقارها وغطرستها ،
فلبى نداء المتعة ،
كما كان يلبى ، ايام الحرب ،
نداء المعارك الضارية .
بعده يأتى كريتون ، حكيم شاب
ولد فى أدغال أبيقور (١)

(١) أبيقور : فيلسوف اغريقى مادى عاش فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد .

لخاريتى (١) وكبريد (٢) وامور (٣)
عاش كريتون عاشقا ومغنيا
محببا للقلب وللعين
كزهرة كرز لم تتفتح بعد
اخرهم لم يذكر اسمه لاحد .
خدوده تظللها برقة بواكير شعر خفيف ،
كانت الحماسة تتقد فى مقلتيه
وقوة الشهوة
تحتدم فى قلبه الفتى . . .
ونظرة حزينة ثبتتها عليه
القيصرة المتكبرة :
- اقسم . . . آه ، يا الهة المتعة
سأقوم بخدمتك كما لم يحدث من قبل
والى فراش الاغراء والرغبة
سأصعد كمأجورة بسيطة .
اصغى الى ياكبريدا الجبارة ،
وانتم ياقياصرة العالم السفلى
أو يا اله آييد (٤) الرهيب

---

(١) خاريتى ، فى الاساطير اليونانية القديمة : ثلاث آلهة للمرح والفتنة والرشاقة . يصور عادة كثلاث نساء متشابكات .

(٢) كبريد : من الاساطير اليونانية القديمة : احد اسماء افروديت (الهة الحب والجمال) .

(٣) هو كيوبيد اله الحب ، فى الاساطير الرومانية القديمة : يقابله فى الاساطير اليونانية القديمة ايروت .

(٤) آييد ، من الاساطير اليونانية القديمة : جوديس او بلوتون اله العالم السفلى ومملكة الاموات .

اقسم - حتى بزوغ الفجر
ان رغبات مُلاكى
سأنهكها بشهوانية
وبكل اسرار القبل
ونعيمها الرائع سأشبعها
ولكن ما ان تبرق أورورا [1] الخالدة
فى رداء الصباح الارجوانى
اقسم - تحت مقصلة الموت
سينفصل رأس هؤلاء المحظوظين عن اجسادهم .

(١٨٣٥)

(الى هنا تنتهى مخطوطة بوشكين لهذه القصة التى لم تكتمل ..)

---

(١) أورورا ، فى الأساطير الرومانية القديمة : هى الهة الفجر التى تجلب الضوء للاله والناس . وتُصَوَّر عادة كفتاة شابة ذات جناحين تصعد من المحيط على عربة مشدودة إلى خيول لامحة اللون .

المــراجــع

١- ف . ج بلينسكى . الاعمال الكاملة . الجزءان السابع والتاسع . دار نشر " اكاديمية العلوم السوفيتية " ، موسكو ، ١٩٥٥ .

٢- أ . س بوشكين . مختارات من اعماله . الجزء الاول دار نشر " المؤلفات الأدبية " ، موسكو ، ١٩٧٨ .

٣- ا . س . بوشكين . مختارات من اعماله . الجزء الثانى . دار نشر " المؤلفات الادبية " ، موسكو ، ١٩٧٨ .

٤- ى . س . تورجينيف . مجموعة الأعمال ، الجزء الحادى عشر ، موسكو ، ١٩٥٦ .

٥- أ . ى . جرتش . الاعمال الكاملة . الجزء السابع دار نشر " اكاديمية العلوم السوفيتية " ، موسكو ، ١٩٥٦ .

٦- ن . ف . جوجول . الاعمال الكاملة . الجزء الثامن ، دار نشر " اكاديمية العلوم السوفيتية " ، ليننجراد ، ١٩٥٢ .

٧- ف . م . دستويفسكى . يوميات الكاتب . الاعمال الكاملة للمؤلفات الفنية . الجزء الحادى عشر ، موسكو - ليننجراد ، ١٩٢٩ .

فهرست

كلمة شكر

أتوجه بالشكر لكل من قدم لى يد العون المادى والمعنوى لاتمام هذا الكتاب .

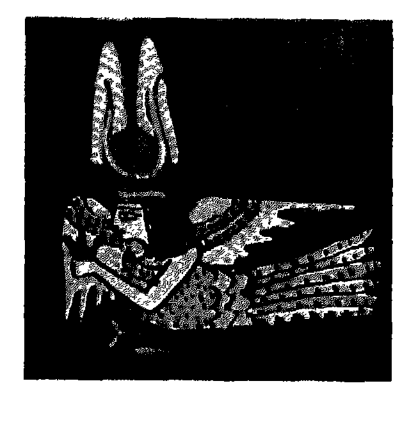
د. نهاد حسن إمام

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣





ألكسندر بوشكين

الغجــــر و ليالى مصرية

لقد استحوذ الكسندر سرجيفيتش بوشكين الشاعر الروسى الكبير على اهتمام المثقفين بصفة عامة ، والدارسين المتخصصين بصفة خاصة لما يتمتع به من موهبة نادرة ، تعيش ثمارها نضرة ، تسعد بها الأجيال عاش بتعداد السنين حياة قصيرة (١٧٩٩ - ١٨٣٧) ، ولكن بحجم انتاجه وقيمة هذا الإنتاج لايزال بوشكين حى حتى يومنا هذا ، ولا نوصف بالمبالغة لو توقعنا لاسمه أن يظل لأجيال قادمة قمة شامخة من قمم الفن صعبة المنال أو النيل ، ورمزا للسهل الممتنع فى دنيا الشعر

وعلى الرغم من صعوبة ترجمة الشعر ، واختلاف وجهات النظر حول امكانية ترجمته من عدمها ، نجد إنه من واجبنا ضرورة نقل المعرفة بصورة أو بأخرى ، مع الالتزام الكامل بالصدق مع الأعمال المنقولة روحا ونصا

الغلاف للفنان حلمى التونى

لماذا « الغجر » و « ليالى مصرية » ؟

لقد اخترنا أن يجمع كتاب واحد ترجمة القصة الشعرية « الغجر » والقصة التى لم تكتمل « ليالى مصرية » لوجود أكثر من شىء يجمعها أولا : فيهما تظهر بوضوح احدى أهم « التيمات » التى سيطرت على فكر بوشكين واستحوذت على ملك إلهامه وهى « البحث عن الحرية » بشتى أنواعها فأبطاله يتغنون بالحرية الفكرية والشخصية والاجتماعية السياسية كما تجمعها صفة أخرى مميزة لانتاج بوشكين الأدبى ألا وهى العالمية وثالث ما يجمع هذين العملين أن بوشكين بدأ كتابتها فى نفس الفترة الزمنية تقريبا . بمعنى أنه بدأهما وهو تحت تأثير مزاج نفسى واحد ناتج من أحداث بذاتها . فى عام ١٨٢٤ بينما ينفعل بوشكين بالأحداث الثورية التى تجرى فى اليونان وأسبانيا ، وبينما يتابع نمو الحركة الثورية بين الضباط النبلاء فى جيش روسيا (حركة الديسمبريين) بدأ يكتب « الغجر » وقصيدة «كليوباترا » ، التى أعاد صياغتها فيما بعد ثم استخدمها بعد فترة فى قصة « ليالى مصرية » .